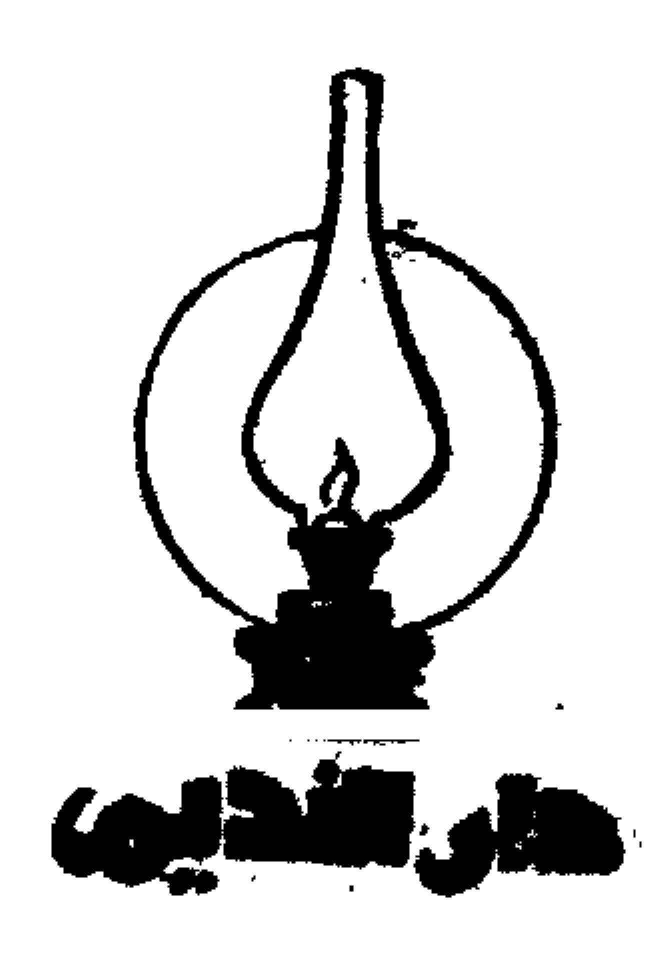
شهر فى روسيا

أحمد بهاء الدين

أحمد بهاء الدين

شهر في روسيا



الاهـــداء

الى « نورية اسماعيلوفا » ...

رأيتها فى « طشقند » .. فى تلك البلاد التى خرج منها التتر يوما ينشرون الدمار فى العالم ، ويلقون الرعب فى قلوب الناس.. البلاد التى سكنها « جنكيز خان » ودفن فيها « تيمور لنك » ..

هى صحفية شابة ، وصورة من الجمال فى « ازبكستان » : القد الصغير ، والوجه الاسمر المستدير ، والعيون الوادعـة .. وغمازتان تضيئان فى خديها اذا ضحكت ، وبدت فى ثغرها سنة من الذهب !

كانت تلبس الثياب الوطنية الزاهية الالوان ، وعلى رأسـها طاقية مزركشة ، وقد ارسلت على صدرها ضفيرتين ..

وعندما وقفنا نتصافح مودعين ، فتشنا فى جيوبنا عن تذكارات نتبادلها فلم نجد ...

واقترحت « نورية » ان تكتب لى كلمة «سلام» بلغتها وتوقع عليها ، وان اكتب لها كلمة « سلام » بلغتى واوقـع عليها ، وان نتبادل الكلمتين ..

وكانت هذه البطاقة اجمل ماعدت به من الرحلة من تذكارات.. هذا التذكار الذى يضم كلمة كانت لغة مشتركة بين انسانين لكل منهما لغته ، وكانت معنى يمكن ان يلتقى عنـده كل البشر مهما ابتعدت أوطانهم واختلفت مذاهبهم ..

انه ليس تذكارا خاصا ، ولكنه دعوة للناس أجمعين .

احمد بهاء الدين

السفر

كنت قد قررت ان اسافر ، ذلك الصيف ، بأى ثمن ..

كنت مرهق القلب ، راكد العقل ، كأن كيانى كله تمثال قديم قد علاه الصدأ ، فهو فى حاجة الى هواء جديد ، يعيد الى رئته الحياة ...

وحجزت لى مكانا على أقرب باخرة ، وكانت غايتى باريس !

واشتريت حاجيات السفر ، واعددت حقائبى ، ولم يبق على موعد السفر غير اسبوع . وفجأة ، علمت اننى سوف اسافر الى مكان أبعد كثيرا من باريس ... الى موسكو !

لقد تقرر ان يسافر وفد من الصحفيين المصريين الى الاتحاد السوفيتي بدعوة من هيئة العلاقات الثقافية الاجنبية هناك . ووقع على الاختيار لكى أكون واحدا من الثمانية الذين سوف يذهبون.

وبقيت الحقائب فى مكانها تنتظر . لم ألمسها بتغيير ، سوى انني اخرجت كتب الادب الفرنسي التى كنت قد أعددتها للطريق ووضعت بدلها كتبا عن الاتحاد السوفيتي. وضعت كتاب اسقف كانتربرى ، الاسقف الاحمر ، عن رحلته هناك . وكتاب

« موريس دوب » استاذ الاقتصاد السياسى فى كامبريدج عن « الاقتصاد السوفيتى منذ سنة ١٩١٧ » ...

وقضيت الايام الباقية على السفر اساءل نفسى : هل تكفى أربعة اسابيع « لدراسة » الاتحاد السوفيتى ؟.. هذه البلاد المترامية التى تشغل سدس مساحة العالم ، والتى تغسل شواطئها ثلاث محيطات ، والتى تجرى فيها منذ اربعين سنة أخطر تجربة اجتماعية عرفها التاريخ ؟..

ثم ...

كيف انظر الى هذه البلاد نظرة غير متأثرة بالقراءات النظرية، والدعايات المؤيدة والمعارضة ، التى تطن فى رأسى كما يطن النحل ؟..

وكيف اخاطب الناس ؟.. اننى لن أعرف الحقيقة كاملة الا اذا خاطبت عددا كبيرا من عامة الناس ، وفى ظروف تغريهم بأن يفتحوا لى قلوبهم . ولكن اللغة ستكون بالتأكيد عقبة اساسية فى سبيل التفاهم . هل احدثهم بواسطة مترجم ؟ نعم ، ولكن وجود المترجم كاف لان يعطى الحديث صفة رسمية . صفة « التحقيق » الذى يجريه أجنبى ...

هذا الى اننى ذاهب فى وفد صحفى ، له برنامج رسمى ، ولا بد من التقيد بحدود معينة ، فالمجال اذا ضيق أمام «البحث الحر» عن الحقيقة ...

الحقيقة ؟.. لا أظن اننى فى هذه الظروف كلها سوف أصل الى ما أقول عنه ــ مطمئنا ــ أنه حقيقة . أغلب الظن اننى سوف اظلم اشياء قد لا تعجبنى من النظرة الاولى ، وسوف تخدعنى

المظاهر فى اشياء أخرى .. ولكن هذا لا يقلل من قيمة الرحلة وخطورتها . يكفى ان أعود منها واسجل « انطباعا » أمينا ، وان لم يكن « تحقيقا » دقيقا .. اما الحقيقة ، فهى ككل حقيقة أخرى، سوف تظل على الدوام تبدو لنا ناقصة ، وسوف نظل على الدوام نجهد لاستكمالها !..

وفى الساعة السادسة صباحا، يوم الخميس أول سبتمبر ١٩٥٥، كنت فى مطار القاهرة الدولى أودع الاصدقاء ، وأصعد سلم الطائرة ، فى الطريق الى فينيا ...

ونظرت ، والطائرة تعلو ، الى القاهرة العزيزة تصغر وتبتعد، وتتبدد اطرافها فى الرمال الصفراء حتى تضيع ، وبعد نصف ساعة تقريبا كنا نعبر الاسكندرية الممتدة على الشواطىء . انها فى هذه الساعة من الصباح تستيقظ وتتثاءب وتستعد للنهوض . واذكر فجأة اننا فى هذه اللحظة الخاطفة تترك الوطن كله ، فتقفز الى الذهن والقلب آلاف الاشياء الصغيرة العزيزة .. شوارع الاسكندرية ، وشواطئها ، وسكانها ، وذكرياتها .. وأحس والطائرة تمرق الى البحر كأن يدا قوية تنتزعنى من أحضان شخص عزيز ، وأغرق فى وحشة شديدة ، كوحشة هذه الطائرة التى أصبحت وحيدة مع السماء والماء ...

ان السماء صحو ، والماء ازرق هادىء ، والطائرة كأنها تنزلق على بساط ناعم ... فلا شىء مثير !..

واحاول ان اترك مصر بعقلى كما تركتها بجسمى ، وان أغلق بابا على كل الخواطر التى تركتها ترتع على الشاطىء ، فأخرج كتابا لأقرأ ...

انه كتاب الاسقف الاحمر ...

ماذا يقول ؟

يسوق نصيحة الى الذين يزورون الاتحاد السوفيتى : لا تقارنوا بين موسكو ولندن مثلا . لقد كانت لندن عاصمة العالم واغنى بلاده عندما كانت موسكو فى الحضيض . ولكن قارنوا بين موسكو سنة ١٩٣٠ مثلا وموسكو سنة ١٩٥٠ .. حاولوا أن تعرفوا معدل التقدم ..

سآخذ بنصيحتك أيها الاسقف !..

هناك نصيحة أخرى : لا تتوقع ان تجد هناك وسائل الترف والرفاهية . قطارات السكة الحديد مثلا ، من الخطأ ان تقارنها بقطارات الغرب ، انهم هناك ينون فى الاساس ولا يفكرون فى المظاهر . ولا توجد هناك شركات تتنافس على اغراء القادرين على الدفع . ان النقل هناك نظيف ، بلا رفاهية ...

ثم هو يعاير الغرب : لولا انتصار الثورة فى روسيا لما عمل الغرب على تحقيق المزايا الاجتماعية التى يعرفها الآن . ان خطر هذه الثورة ونجاحها هو الذى ارغم حكومات الغرب على التسليم بمطالب الطبقات الفقيرة ...

ألا يوجد شىء لم يعجب الاسقف الاحمر هناك ؟.. نعم . لم يعجبه « نظام الجاسوسية » وسطوة البوليس السرى . انه يبدى أسفه على ذلك ، ويحاول ان يعلله ، فيقول : انه فيما يظهر وضع موروث منذ ايام القيصر ...

تعليل سخيف . فلماذا لا يبقى من ميراث القيصر الا هذا فقط ؟.. الافضل ان اؤجل البحث عن السبب حتى أصل الى

هناك ... خصوصا وأن المضيفة تطلب منا أن نستعد للهبوط في استانبول ...

*

لم نبق فى مطار « يزل كوى » باستانبول اكثر من نصف ساعة ، عدنا بعدها الى ركوب الطائرة ...

الوجوه تغيرت، ناس نزلوا وآخرون جاءوا مكانهم، والمضيفة تدور علينا تقدم لنا طعام الغداء . والطعام فى الطائرة كالمقال البليغ : مختصر مفيد ، جمله قصيرة حافلة بالمعانى !..

وتهتز الطائرة لاول مرة منذ تركت القاهرة .. لقد وصلنا الى المنطقة الجبلية فى اليونان ...

الجو يكفهر ويضطرب . والسحاب الابيض الكثيف يغمر الطائرة . وانظر من النافذة فأرى جبالا ووهادا بيضاء اللون كالاشباح ، وكتل ضخمة من السحاب تمضى ، كأن الطائرة تمضى فى طريق الى الآخرة ، أو فى مكان تسكنه الارواح !..

ويتوجس البعض خيفة .. ويبتسم آخرون ...

والخوف والشجاعة فى هذه اللحظات يتوقفان على ما يدور فى الرأس من خواطر . الخواطر التى تغرى بالخوف هى اننا قلة ضعفاء ، وان الطائرة نقطة ضائعة كالريشة فى مهب الرياح ... اما الشجاعة ، فهى تحل فى نفسك اذا نظرت الى الامر من ناحية أخرى : اذا نظرت الى روعة المغامرة، وعبقرية الانسان التى صنعت هذه المحركات القوية، التى تزأر وتمضى هازئة بالعواصف.. تعلو وتهبط وتتأرجح ، ولكنها تتشبث باسنانها فى الفضاء وتشق طريقها فى ضباب مطبق ، فى ظلام أبيض لا ترى فيه شىء !

أما أنا .. فلا أركب الطائـــرة مرة الا وتغمرنى موجـــة من التفاؤل !..

ان السفر فى ذاته يخرج الانسان من دائرة نفسه المحدودة . وعندما اسافر الى الخارج أرى وجوها كثيرة للحياة ، وأشعر بأن الذين يشاركوننى هذه الحياة اكثر مما كنت أظن .. وعندما انظر من نافذة الطائرة الى الارض أحس بأنها تتسع لاضعاف اضعاف سكانها . ان أغلب مساحاتها ما زالت بكرا ...

وكثيرا ما افكر : هذه الرحلة التى أطير فيها آمنا مطمئنا ، كم تكلفت من عقول وارواح وتضحيات ؟.. لقـــد سبقنى عشرات المغامرين الذين جربوا الانطلاق فى الجو . تحطمت بهم الطائرات الاولى ، وتمزقت اشلاؤهم على الصخور ، كل ذلك لكى تنجح التجربة ، ويتوفر لى هـــذا الطيران السريع .. وأشـــعر ان حياة الناس شديدة التشابك والارتباط . واننا نجنى ثمار تضـــحيات ناس لا نعرفهم ولا نعاصرهم .. فكلنا خلايا فى عش كبير جدا ..

أليس هذا باهرا ؟.. ان تخوض هذا الجو الحافل بالخطر ؟ الا تفضله على الامن الراكد بين اربعة جدران؟.. ألا تهون امامك الصعاب وتتضاءل قيمة مشاكلك ؟.. الا ترى القبة قد أصبحت حبة ؟..

لقد انقشع الخطر ، وعاد الاشراق الى جميع الوجوه . ونحن الآن نطير تحت شمس واضحة وفوق خضرة كثة ... وها هى فينا تقترب ...

ايفـان الرهيب !

وصلنا فيينا فى يوم تاريخى من ايامها .. ففى هذا اليوم انتهى الاحتلال الاجنبى لها ...

كانت فيينا تتنفس فى حرية لاول مرة منذ ثمانية عشر عاما . ففى صباح يوم قاتم بعيد ، دخلت سيارات هتلر المصفحة شوارع فيينا ، وخلفها ذوى القمصـــان البنية يدقون أرضها الســاكنة باقدامهم ، فى خيلاء خطوة « الاوزة » المشهورة . ودمر هتلر كل الاجهزة الديمقراطية فى البلاد، وحطم استقلالها وكبرياءها وطابعها الوطنى ، ليرفع فوق هذا الركام الهائل أعلامه . وعند ما قامت الحرب ، قاد شباب النمسا قسرا وراء عجلته الحربية فى زحفه الى الشرق . ورقد شباب النمسا صرعى فى سهول روسيا وبولونيا، ثم جاءت جيوش الحلفاء الانجليزية والامريكية والروسية الى فيينا ، ولم تنسحب الا فى ذلك اليوم ، يوم وصولنا اليها ...

وفى هذا اليوم بالذات ، شــب الحريق فى فنــدق كبير كان مخصصا لنزول الضباط الروس . ولم يعرف أحــد بعد هل هو حريق سياسى ، أم ان اللهب شب بمحض الصدفة ؟..

كان وصولنا الى فيينا حوالي الساعة الثانية بعد الظهر . وكان المفروض أن نقضى بقية اليوم ونبيت الليلة فى فيينا ، ثم نستأنف السفر صباح اليوم التالى ...

وفى المطار استقبلنا أول ممثل للحكومة الروسية : الرفيق ايفان .. رجل قصير ، بدين نوعا ، أصلع الرأس تقريبا ، يتكلم الانجليزية فى بطء وهدوء شديدين ، ليس على وجهه أى تعبير .. لا تقطيب ولا ابتسام ولا ترحيب ولا اعراض .. ولا شيء على الاطلاق !..

وقال لنا الرفيق ايفان : لقد تعدل البرنامج ، وسوف تسافرون الآن فورا الى الاتحاد السوفييتى !..

كان هذا هو أول خبر سيىء نسمعه فى الرحلة !.. اذا فهذا الرجل ايفان سوف ينتزعنا الآن فورا من فيينا التى كنا نريد ان نقضى فيها يوما ! ولعله كان مظلوما، فهو ليس الا منفذ للتعليمات، ولكنا اطلقنا عليه منذ تلك اللحظة اسم : ايفان الرهيب ..

وثار البعض ، وقال آخرون انهم متعبون من السفر ولا بد من الراحة يوما ، وحاول الباقون ان يقنعوا ايفان الرهيب ... وبعد ان انقضت ربع ساعة تكلمنا نحن فيها بلا انقطاع ، ولم ينطق هو فيها كلمة واحدة ، قال فى هدوء شديد ، وليس على وجهه أى تعبير :

ـ والآن .. الى السيارة لكى نذهب الى المطار الآخر الذى سوف نسافر منه !..

وتقدمنا الى السيارة ، وسرنا خلفه صاغرين !..

وانطلقت بنا السيارة فى سرعة كبيرة ، تشق الريف النمسوى

الحالم ، فى رحلة استغرقت ساعتين كاملتين ••• لقد كان المطار الذى نقصده فى الطرف الآخر من المدينـــة ••• وكان ممكنا ان تكون هاتان الساعتان رحلة لا تنسى فى الريف ، لولا حالة الغيظ التى استولت علينا ••• كنا ندور حول ضواحى فيينا بالضبط ، ومعالم المدينة تبدو لنا من حين الى آخر ، ونحن تتحرق شوقا الى دخولها ! ولربما دخلت بنا السيارة أحيانا بعض ضواحيها ، ثم لا تلبث ان تواصل طريقها الى خارج المدينة ، حتى لكأنها بكل هذا الجمال ، سراب نقترب منه ثم لا نجده شيئا !••

كان البعض يقولون : هذا هو الستار الحديدى !•• ان ايفان الرهيب يسيرنا كما يشاء ويرفض حتى مناقشتنا ! من الآن سوف نذهب ونجىء بالامر !••

وكان البعض يحاولون اخراج ايفان الرهيب عن صمته ، فلا يرد الا بجملة واحدة هى : كل شىء ممكن !•••

ـ هل تعتقد أنه لا مفر من السفر اليوم ؟••

ـ كل شىء ممكن •••

ـ الا توجد طريقة لتأجيل السفر ؟

ـ كل شىء ممكن •••

ـ ماذا تظن سبب الحريق فى الفندق ؟

ـ كل شىء ممكن !••

ـ هل تعتقد ان النمسا سوف تحتفظ بحيادها ؟••

ـ كل شىء ممكن !••

وكان يحدث أحيانا ان تقف السيارة حتى يمر قطار الســكة الحديد مثلا ، فنسرع بالنزول ، ونلتهم فى هذه الدقــائق جمال

المنطقة ، وخضرة الحقول ، وعذوبة الجو ... ثم ينادى علينا ايفان الرهيب ، فنعود الى السيارة كالتلاميذ ...

ــ لعلنا فى العودة نستطيع ان نقيم هنا بعض الوقت

ــ كل شيء ممكن !!..

ووصلنا الى « المطار » ... انه مجرد مساحة ممهدة ، وبناء كبير دمرته القنابل فى الحرب فلم يبق منه الا جدار واحد عال ما زال مكتوبا عليه « ممنوع التدخين ! » وقد احترق من حوله كل شيء ! و « كشك » صغير ، وطائرة صغيرة تنتظر ...

ودخل ايفان الى الكشك الصغير لكى يتمم اجراءات الجوازات والتذاكر وما الى ذلك . وجلسنا على الحشائش ساعة كاملة ، ثم خرج ايفان الرهيب يقول : لقد جاءت برقية من كييف تقول ان الجو غير ملائم الليلة للسفر .. وعلى ذلك سوف تقضون هذه الليلة فى فيينا !..

ــ بعد أن ضاع منها النهار يا ايفان ، وزحف الليل ؟..

ــ كل شيء ممكن !..

وعدنا الى فيينا ...

وعدنا نسترجع ما فات بنا من الرحلة حولها ، ونحاول ان نلتقط فى الساعات الباقية امامنا صورة خاطفة للمدينة ...

ان فيينا مدينة جميلة ، وأجمل منها الريف الذى يحيط بها .. القرى النظيفة الهادئة ترقد فى احضان الجبال البنفسجية ، والخضرة الكثيفة تغمر السفوح والوديان ، فترى البيوت من بعيد غارقة فى بحر من الخضرة ، لا يبدو منها الا السقوف الحمراء هنا وهناك ، والفلاحات فى ثيابهن التقليدية الجميلة ، بألوانها

الزاهية ، كأنهن بعض هذا الهواء المنعش اللذيذ !..

ولكن هذه البلاد العريقة الخلابة ، ما زالت تحمل طابع الاستبداد والحرب والاحتلال .. ما زالت تحمل على جلدها آثار السياط ، وفى روحها رعشة الفزع العميق !..

ان المطار الرئيسى ، على نظافته ، ما زال مقاما من هياكل القماش والخشب ...

وعلى جوانب الطريق ، ترى تحت احواض الزهر ، مخابىء الغارات ...

والناس انفسهم ، لهم معنويات خاصة عميقة الدلالة .. فقد لاحظت مثلا كثرة عدد العواجيز ، الذين يجلسون فى الحدائق أو يتنزهون فى الريف . تلمح رجلا وامرأة يسيران متلاصقين فى هيام، وتقترب منهما فتجدهما كهلين ، مضى على زواجهما اربعون سنة على الاقل . وسألت فى ذلك ، فقيل لى : ان عدد السكان فى النمسا ينقص ولا يزيد . الناس هنا أصبحوا بعد ما مر بهم من خطوب يؤمنون بشىء واحد : ان يعيشوا حياة مرحة خالية من التبعات ، وليكن بعدهم ما يكون . فهم لا يفكرون فى غد ، ومن أجل ذلك لا ينجبون الاطفال .. وهكذا يتناقص عدد الشباب ، ويطول عمر الاباء والامهات !..

وفيينا بالذات يبدو عليها هذا الطابع .. طابع الرغبة فى الاستمتاع بالحياة قبل أى شىء .. انها مدينة خفيفة الظل ضاحكة، فى جوها شىء كالنغم المرح يغرى بطرح الهموم..ولكنها لا تضحك ضحكة السعيد ، انما ضحكة من يريد ان ينسى !..

تركنا فيينا عند الفجر ...

كانت السماء تمطر ، والماء المتدفق يغسل التماثيل التى تتلقى المطر صابرة ، فيها حوريات عاريات وفيها اباطرة مثقلون بالثياب المزركشة والقبعات ...

وفى الساحة التى تحمل اسم المطار، كان هناك سائر الركاب.. بعض ضباط الجيش الاحمر ، وناس يبدو انهم تجار ، وأنهم بلقانيون ، فهم فى سمرة المصريين ...

وكان ايفان الرهيب فى وداعنا . ملامح وجهه لم تتغير منذ الامس ، وهو يصافحنا بلا اعراض ولا ترحيب ، كالصراف الذى يفحص تذاكر المسافرين !

هل هذا هو النموذج الذى سوف نراه هناك ؟..

وصعدنا الى الطائرة . وكانت المضيفة فتاة مليئة ، خضراء العينين ، لا تضع على وجهها شيئا من الاصباغ ، وتلبس ثيابا بسيطة . ولم تكد الطائرة تصعد بنا الى الفضاء ، حتى ذكرت نصيحة « الاسقف الاحمر » : لا تقارن المواصلات فى الشرق

بمواصلات الغرب. هناك لا توجد شركات تبحث عن الرفاهية تنافسا على ارضاء الراكب القادر على الدفع ...

ان منظر الطائرة من الداخل لا يزيد عن مستوى سيارة أوتوبيس «نصف عمر» فى القاهرة. وأحزمة النجاة غير موجودة ، ولا الاشارات الضوئية التى تنبه الركاب الى عدم التدخين اثناء صعود الطائرة أو هبوطها ... والضغط فى الطائرة غير مكيف ، فلا تكاد تصعد الى طبقات الجو العليا حتى تشعر بانك تتنفس بصعوبة ، وان هناك شيئا يضغط على عروقك فتؤلمك ...

وقالت لنا المضيفة بعد قليل : لقد عبرنا حدود روسيا !..

اذا فقد اخترقنا « الستار الحديدى » الشهير !..

ان « الستار الحديدى » اسم اطلقه تشرشل فى احدى خطبه بعد نهاية الحرب، فلم يلبث ان أصبح تعبيرا شائعا كتعبير « الحرب الباردة » وما الى ذلك من الاصطلاحات ...

هل هذا « الستار الحديدى » حقيقة موجودة ؟.. أم انه كان موجودا ثم ازيح ؟.. أم انه لم يوجد قط ؟..

اسئلة أخرى ، سوف اذكرها عندما أصل الى هناك .. أما الآن ، فلا شىء يبدو تحت الطائرة الا السهول الشاسعة التى لا تقوم فيها جبال ولا تلال .. ان روسيا لا تفصلها عن اوروبا حدود طبيعية من جبال أو بحار أو صحراوات ... ان السهول الزراعية التى تبدأ فى المانيا والمجر لا تنتهى قبل موسكو !.. وقد كان هذا اغراء كافيا للغزاة من قديم العصور ...

واقتربنا من « كييف » . وكان الرفيق ايفان قد قال لنا ان جمهورية أوكرانيا قد دعتنا لزيارة عاصمتها « كييف » زيارة

تستغرق اربعة أيام ، قبل أن نذهب الي موسكو ...

وكنت قد سألت ايفان فى هذه المناسبة : هل هناك فرق بين وضع جمهورية اوكرانيا بالنسبة للاتحاد السوفيتي ، وبين وضع سائر الجمهوريات الستة عشر ؟.. فقال لى : لا ..

وسألته : اذا لماذا تمثل اوكرانيا فى الامم المتحدة ، الامر الذى لا يتوفر عادة الا للدولة المستقلة ؟ اذا كانت اوكرانيا كسائر جمهوريات الاتحاد السوفيتى فاما ان تدخل الجمهوريات كلها الى الامم المتحدة ، واما ان لا تمثل اوكرانيا لانهـا ليست جمهورية مستقلة تماما بالمعنى القانونى ، انما هى جمهورية داخلة فى اتحاد.

وقال ايفان : ربما دخلت هى بالذات بعدالحرب مباشرة ، لانها كانت الجمهورية التى شهدت من فظائع الغزو النازى اكثر من غيرها ...

وقلت له : لا أظن ان هذا هو السبب . السبب فيما اعتقد هو ان الدول الكبرى بعد الحرب ، وفى أول تأسيس الامم المتحدة ، كانت تجلس الى المائدة كأنها تلعب الورق .. كل دولة تريد ان تضمن لنفسها أكبر عدد من الاصوات الموالية . وكانت امريكا وانجلترا متفوقة فى هذا الصدد ، بحكم سيطرتها على كثير من الدول الصغيرة فى أمريكا الجنوبية وغيرها ، وسيطرتها بالتالى على اصواتها ، بينما كانت روسيا تقف وحيدة تقريبا به فاصرت على دخول أوكرانيا لمجرد كسب صوت صديق .. ولو كان هذا الوضع غير قانونى ...

وهز ايفان رأسه وقال : كل شىء ممكن !

وهبطت الطائرة فى مطار كييف ...

ونزل الركاب الذين كانوا معنا من تجار وضباط ، ونزلت خلفهم .. ورأيت لاول وهلة حشدا كبيرا من الناس . فيهم فتيات يحملن باقات من الزهور ، وفيهم فيما يظهر بعض الرسميين . وهناك ميكروفون ينتظر من يتحدث فيه ...

هل هذا الاستقبال الحافل لنا ؟.. كلا، فقد تقدم (الرسميون) من الآخرين الذين كانوا معنا فى الطائرة ، يصافحونهم بحرارة ، وتقدمت البنات يقدمن لهم باقات الزهر ، وها هم يدعون أحدهم الى الميكروفون للكلام ...

ولكننى الاحظ ان ثمة حرجا معينا . وتخرج من الجمع فتاة تسرع الى حيث اقف عند سلم الطائرة ، وتسألنى : هل انتم اعضاء الوفد الصحفى المصرى ؟..

كانت تتكلم اللغة العربية بطلاقة . فقلت لها وانا فى غمرة الدهشة : نعم ..

ـ وأين الباقون ؟

ـ ها هم قد بدأوا يهبطون ...

وتعود الفتاة من حيث أتت .. ثم ينجلى الموقف !..

لقد ظنوا ان هؤلاء الركاب السمر هم الصحفيون المصريون ! وعند ما اكتشفوا الغلطة ، تحولت الينا الحفاوة وابتسامات البنات الصغيرات والزهور . وعادت الفتاة التى تتكلم اللغة العربية تقدم الينا المستقبلين ، وعلى رأسهم « سرجى سليبجنكو » نائب وزير الخارجية ، و «لوكاكيزا» رئيس شعبة العلاقات الثقافية الخارجية فى اوكرانيا ، و « بريكاردونى ديمترى » رئيس تحرير مجلة اوكرانيا السوفيتية ...

انهم يصافحوننا فى حرارة ويبتسمون ، ويقهقهون على اللبس الذى حدث ، ويهزون ايدينا بقوة كأننا أهل عائدون ... اننى لا أجد بينهم ايفان واحد رهيب !!.

وخرجنا من المطار لنركب السيارات ...

وجلست معى فى السيارة الاخيرة ، الفتاة التى تتكلم العربية.

انها « هيلين استفانوفا » التى سترافقنا طول الرحلة . فتاة مليئة بالحركة والمرح والنشاط ، فى حوالى الخامسة والعشرين من العمر ، شقراء .. حسبتها أول الامر سورية أو فلسطينية لانها تتكلم بلهجة سورية طلقة ، ولكنها أقسمت لى انها روسية ، وأنها لم تزر الشرق العربى قط ، ولكنها درست عشر سنوات فى معهد اللغات الشرقية بموسكو ...

كانت تعرف اسماء اعضاء الوفد الصحفى كلهم ، والصحف التى يعملون فيها ، وسألتها ماذا تعرف أيضا عن مصر ، فقالت : بعيدا عن السياسة .. اعرف مؤلفات طه حسين وتوفيق الحكم ، وأغانى أم كلثوم !..

وسألتنى : هل كانت الرحلة متعبة ، فقلت لها رأيى بصراحة فى الطائرات الروسية. وضحكت هيلين ، وقالت : هذا صحيح . ان وسائل الراحة غير متوفرة فيها . ولكن اعتقد ان هذا قد بدأ يتغير . خصوصا وانه سوف تدخل خطوط جوية أجنبية لاول مرة فى روسيا ، كما سوف تذهب الطائرات المدنية الروسية فى خطوط منتظمة لاول مرة الى الخارج عن قريب ...

وسألتنى : ماذا تريد ان ترى فى روسيا اكثر من سواه ؟

فقلت لها : اريد ان أرى كل شىء .. القديم والجديد على

السواء . اريد ان أرى آثار ثورتكم بعد اربعين سنة . اريد ان أرى ماذا حدث فى النظام الجديد لابطال روايات تولستوى وتشيكوف .. اريد ان أرى كل شىء ذو طابع قومى ، حتى « الساموفار » الذى طالما ارسل دخانه فى قصص دستويفسكى .

وضحكت هيلين وقالت : سوف ترى كل شىء ..

ونظرت من السيارة المسرعة ، ومر امام عينى شريط زاخر بالقديم والجديد .. قصور زرقاء لا بد كان يسكنها القياصرة ، وتمثال أبيض للينين ، وكنائس مذهبة ، وعربات الترام الحمراء ، وعمارات جديدة شاهقة ، والشبان ذوى السواعد القوية ، والعواجيز ذوى اللحى الطويلة الكثة التى لا تجدها الا فى روسيا !.

ودخلت السيارة شارع لينين ، ووقفت امام فندق (انتوربست) أى : فندق السياح ...

كييف ..

ان كييف مدينة جميلة غارقة فى الحدائق !!..

الشوارع هنا واسعة جـدا ، وطريقتهم فى رسمها عجيبـة ، الجانب الايمن منها كله حـديقة عريضة ، وبعد الحـديقة يبدأ الرصيف العادى .. فكل شارع مهما كان طوله ، تشغل الحدائق والأشجار والزهور ثلثه بالضبط !!..

وقد ساعدت الطبيعـة على ابراز جمـال المـدينة .. فهى مرتفعات ومنخفضات وروابى تطل على نهر الدنيبر العريض ،وكل هذه المرتفعات ، والمنخفضات ، والروابى استغلتها المدينة فىغرس حدائق .. وغابات زاهرة ..

وقد قال لى مهندسو المدينة أن كل فرد فى المـدينة له سبعة أمتار من الحدائق ، وسكان المـدينة يبلغون المليون .. أى أن كييف فيها سبعة ملايين متر من الحدائق ، والتخطيط الجـديد للمدينة سوف يجعلها عشرين مليونا !!..

ومن يرى المدينة لا يصـدق أن هتلر تركها خرابا منذ عشر سنوات !!.. لقد دمرت الحرب ٤٠ ٪ بالضبط من مبانى المدينة،

وكان التدمير فى قلبها بالذات ، وكان شارع « كيرشياتك » وهو الشارع الرئيسى فى المدينة ، أكواما من الخرائب ، وهو الآن من أوسع وأجمل الشوارع ، وعلى جانبيه أقيمت مبان وفنادق ضخمة.

و « كيرشياتك » معناها « التعميد » . وقد سمى الشارع بهذا الاسم نسبة الى الامير « فلاديمير » الذى كان أول من اعتنق المسيحية فى كييف فساق أهلها جميعا الى نهر الدنيبر ، حيث يوجد الشارع الآن ، وقام بتعميدهم قسرا من ماء النهر !!.. وللامير فلاديمير تمثال جميل فى احدى الحدائق الواسعة ..

والروس يعتزون اعتزازا كبيرا بالسرعة التى أعادو بها بناء بلادهم .. انهم لا يتركون مناسبة الا ويحدثونك عن الخراب الذى حل ببلادهم ، والسرعة التى أزالوا بها هذا الخراب ..

وكما يعتز الروس بالبناء والتعمير ، فانهم يعتزون اعتزازا كبيرا بأبطالهم . ان كل بطل قدم لبلاده شيئا فى ميدان الحرب أو الادب أو العلم ، هذا العام أو منذ مائة عام ، تجد هنا شيئا ما يخلده ويجعله للآخرين مثلا ، ورمزا ، وقدوة .

فى ركن من ميدان كيرشياتك تجد قبرا صغيرا دفن فيه أول ضابط روسى اقتحم كييف بدبابته خلال تحريرها من الالمان .

وفى ميدان آخر ، ترى بعض المبانى القديمة المهدمة ، وقد ملأت جدرانها آثار القنابل والرصاص ، وفى وسط الميدان قاعدة عليها مدفع صغير . وتسأل ، فيقولون لك ان هذا الميدان هو المكان الذى انفجرت فيه ثورة اكتوبر لاول مرة سنة ١٩١٧ ، وكان هذا المدفع الصغير هو السلاح الوحيد فى يد الثوار ، وأما

هذه المبانى .. فانها تحمل آثار المعركة ، وقد احتفظوا بها بحالتها التى كانت عليها ليلة الثورة الى الآن !!..

وأكبر متحف فى المدينة يحمل اسم « شفشنكو » ، وهو شاعر ورسام أوكراينى ، كانت حياته حافلة بالكفاح والالم من أجل تحرير مواطنيه من نير الاقطاعيين ..

كان هو نفسه عبدا يملكه أحد الاغنياء ، وكان هذا الغنى يضربه ضربا مبرحا اذا رآه جالسا يرسم أو يكتب أبياتا من الشعر على قطعة من الورق .. فلما أصبح شفشنكو شابا ، وتفجر نبوغه ، أخذ المعجبون به يجمعون التبرعات ويبيعون من لوحاته، حتى اجتمع لهم مبلغ اشتروا به حريته من الاقطاعى الغنى وأصبح شفنشكو حرا ..

وانطلق شفشنكو يناضل كالعاصفة : يرسم اللوحات التى تدمغ الاقطاع بكل الجرائم .. ويكتب الابيات التى يتغنى بها الفلاحون فتغلى دماؤهم ..

كان يقول لهم : « لا تنتظروا الرحمة من القيصر ، انتزعوا حقوقكم منه كما ينزع جلودكم كل يوم » !!..

و « أن دماء الضحايا ودموعهم .. تكفى لاغراق الطغاة » !!

وعرف شفشنكو طريق السجن .. ونفى الى أزبكستان عشر سنوات .. والى قازاخستان سبع سنوات ، ومن المنفى كان يرسل الاشعار الا بلاده يقول فيها : « أنا أتألم ، ولكنى .. لا أنحل » !!.. وكانت هناك أميرة اقطاعية تحبه وتطارده، وفلاحة أوكراينية يحبها ويتغنى بها !!.. وعندما أدركه الموت ، طلب أن يدفن على ضفة نهر الدنيبر ، « لاننى أريد أن أكون

منظرا جميلا في حياة بلادى » ، وما زال قبره هناك !!..

لماذا رويت قصة شفشنكو ؟

رويتها لكى أوضح الطريقة التى يخلدون بها بطلا مثل شفشنكو ...

ان متحف شفشنكو لا يضم مئات اللوحات والقصائد التى تركها فحسب .. ان فى المتحف لوحات زيتية رسمها أكبر الفنانين الروس ، تمثل جميع مراحل حياة شفشنكو .. منذ كان صبيا يضربه مالكه لانه يكتب الشعر ، الى نفيه ، الى وفاته ،حتى تشييع جنازته ، ومنظر قبره على حافة النهر !!.. يمر الزائر أمام هذه اللوحات .. فيستمتع برؤية آيات من الفن ، ويرى فى نفس الوقت قصة حياة شفشنكو مجسدة أمامه !!..

وليس هذا فحسب . ان فى المتحف عشرات من التماثيل التى تصور أبطال قصصه ومسرحياته .. وفى المتحف لوحات لكل الفنانين الذين تأثروا بشفشنكو مثل جوركى وغيره .. وفى المتحف ترى صورة مولوتوف وهو شاب .. فتسأل ما الذى آتى به الى هنا .. فيقولون لك : لانه كتب فى شبابه بحثا هاما عن شفشنكو .. ثم ترى الجريدة التى نشرت البحث معلقة بجوار الصورة !!..

وعلى كورنيش الدنيبر رأيت تمثالا ضخما لرجل اسمه « ميتشورين » ، يحيط به معرض مكشوف للمنتجات الزراعية الممتازة ، يمتد مسافة طويلة ، ويضم أنواعا من الخضر والفاكهة والزهور ، من انتاج المزارع المختلفة ومن انتاج تلاميذ المدارس الزراعية وهواة الزراعة .. أما « ميتشورين » ، فهو الرجل الذى

قام هنا بأهم تجارب لانتاج أنواع ممتازة من الفاكهة والزهور..
وتحت تمثاله نقشوا كلمة شهيرة له تقول : « اذا كانت الطبيعة أقدر على الخلق ، فان الانسان أقدر على التحسين » !!..

ولا أذكر ماركس وانجلز ولينين وستالين .. فان صورهم وتماثيلهم وكلماتهم تملأ الجدران فى كل مكان سواء كان وزارة ، أو بيتا ، أو دكانا ، أو محطة للسكة الحديد .. وقد أضيفت الى صورهم فى بعض الاماكن صورتان اخريان : خروشتشوف وبولجانين !..

على هذا النحو يمجد الروس أبطالهم القدامى منهم والجدد على السواء ..

والواقع ان هذا المزج بين القديم والجديد كان من أول الاشياء التى لفتت نظرى فى هذه البلاد ..

والبطل هنا ليس بطل السياسة أو الحرب فحسب .. كلا ، ان الرجل الذى يستنبت نوعا جديدا من المحاصيل بطل تقام له التماثيل فى الميادين !! والرجل الذى يخطو فى الطب خطوة جديدة بطل يحتفلون بذكرى مولده ! والشاعر الذى يضيف الى الثروة الثقافية والفكرية شيئا جديدا بطل تقام له المتاحف والتذكارات !.

انهم هنا لا يقطعون الصلة بتاريخهم بل يحاولون تقوية هذه الصلة كل يوم . انهم لا يقولون للناس أن تاريخ روسيا وكفاحها قد بدأ بثورة ١٩١٧ ، ولكنهم ينقبون فى زوايا تاريخهم عن كل بطل مجهول لينفضوا الغبار عنه ، وعن كل أثر قديم أو مبنى تاريخى لكى يبرزوه ويحافظوا عليه ، وعن كل قصة وطنية أو أسطورة شعبية فيخرجونها فى لوحات على الجدران ، وفى

« أوبرات » على المسرح ، وفى أفلام على شاشة السينما .. وهم بهذا كله يذكون الروح الوطنيـــة فى النفوس ، ويعلمون الناس الاعتزاز ببلادهم اعتزازا لا يدانيه أى شىء فى الوجود ..

لقد سهرنا ليلة فى أوبرا كييف ، وكانت تعرض هناك أوبرا « تراس بولبا » المستمدة من احدى قصص « جوجول » والتى لحنها « ليسنكو » . انها مسرحية وطنية ، بطلها رجل كان يكافح هو وأولاده مع الاوكرانيين ضد الغزاة البولنديين الذين احتلوا كييف منذ قرنين .. ويحاصر الاوكرانيون الجيش البولندى فى كييف حتى يشرف على الجوع . ولكن أحد أولاد «تراس بولبا» يحب ابنة أحد النبــلاء البولندين المحاصرين ، فهو يخون بلاده ويسمح بتسرب الطعــام الى الجيش المحاصر ، حتى لا تمــوت حبيبته من الجوع قائلا لها « أنت حبى الوحيد !! » . ويعــلم الاوكرانيون بالامر ، فيقتل تراس بولبا ابنه !!..

وفى الفصل الاخير من الاوبرا ، رأينــا على المسرح مشهدا للاوكرانيين وهم يقتحمون قلعة البولنديين ، والقلعة ينتشر فيها الحريق وتتساقط أركانها بين ألسنة اللهب والدخــان .. كان الاخراج رائعا وكانت الموسيقى مثيرة .. وامتزج هذا كله لكى يخلق جوا من الحماسة والغليان ، فلما أسدل الستار، انفجر الناس فى عاصفة من التصفيق كالرعد ..

وقد كنت أحدث « هيلينا » بملاحظتى هذه عن حرص الروس على تاريخهم وآثارهم .. فقالت لى :

ــ سترى فى موســكو ما هــو أعجب ؟ سترى مبنى بلدية موسكو التاريخى ، الذى نقلوه بأكمله من مكانه الى مكان آخر

حتى لا يضطروا الى هدمه !!..

واستوضحتها الامر .. فقالت ان الحكومة عندما قررت شق شارع جوركى ـ أكبر شوارع موسكو ـ فى سنة ١٩٣٨ ، وجدت ان مبنى البلدية سوف يعترض شق هذا الشارع وتوسيعه الى الحد المطلوب ، ولم تشأ الدولة أن تهدم هذا البيت التاريخى القديم ، فقامت بعملية عجيبة ، اذ « سحبت » المبنى الى الوراء ثلاثة عشر مترا .. وبذلك شقت طريق جوركى الجديد واحتفظت بمبنى البلدية القديم !!..

ولما سألتها عن الطريقة التى تمت بهذا هذه العملية العجيبة قالت : ستجد الطريقة مجسمة بجميع مراحلها فى متحف البلدية هناك !!..

*

أول ما يثير اهتمام الزائر ـ الزائر الشرقى على الاقل ـ هنا ، هو نصيب المرأة من الحياة العامة ..

ان المرأة هنا تعمل فى كل مكان ، كالرجل سواء بسواء ، بأجر يساوى أجره تماما ..

ان كل عمال النظافة فى الشوارع ، وكمسارية الترام و « الترولى بس » ، والباعة فى المحلات والاسواق وفراشى الوزارات والفنادق ، وجرسونات المطاعم ، وعمال المصاعد ، وعمال اللينوتيب فى مطابع الصحف والذين يشرحون لك الآثار فى المتاحف .. كل هؤلاء من النساء !!..

المرأة هنا تمسك مقشة طويلة فى الشارع ، وتضع «عفريتة» زرقاء أمام آلة اللينوتيب فى المطابع ، وتلبس « بلوزة » بيضاء

و « جونلة » سوداء وتاجا من الورق الابيض فى المطاعم .

ومعنى ذلك ــ أولا ــ أن كل النســاء هنــا يعملن ، وانه لا توجـد امرأة عاطلة مهما كان عمرها . حتى النساء العجـائز الطاعنات فى السن تراهن جالسات فى أكشاك بيع الكتب والصور والطوابع ، وأمام عربات اليد التى تبيع العصير والمشروبات .

ومعناه ــ ثانيا ــ ان الرجال مدخرون للاعمال الاكثر مشقة .. كمصانع الصلب ومناجم الفحم ..

ان الكل هنا يعملون .. ويعملون عملا شاقا ..

و « التعب » تراه باديا على كل الاجساد والوجوه .. تعب الذين يحملون الصخر لكى يقيموا بنــاء صعبــا ولو حرموا من الكثير ..

ولكن هذا التعب لا يخفى عن النــاظر الصفات الحقيقيــة للمواطن الروسى العادى .

ان المواطن الروسى عنيد ، طيب ، كريم ..

لقد كنا نهرب أحيانا من البرنامج الرسمى الحافل لكى نذرع شوراع كييف أحرارا من الرسميات تتفرج على الناس والشوارع والدكاكين ، وكانت الصحف قد نشرت نبأ وصولنا وصورنا .. فأصبح الناس يعرفوننا من الوهلة الاولى ويبتسمون ويرحبون .

وقد دخلنا سوق الخضار مرة ، ووقفنا نتأمل مناظر مألوفة فى مصر : النساء اللواتى يبعن السمن والقشــدة والجبن الابيض والفاكهة .. وبدأت النساء البائعات يحدثننا بالاشارة ، ويدعوننا الى تذوق الجبن والقشدة ..

والروس يسخون على أنفسهم وعلى غــيرهم فى ناحيتين :

الفن .. والطعام !

ان المائدة الروسية مائدة دسمة جدا ، ربما بسبب الجو .. وقد كنا فى أول الامر نجلس الى المائدة فنجد عليها الكافيار ، ونوعين من الجبن ، وثلاثة أنواع من السمك المحفوظ .. وزبداء ولحما باردا .. وأنواعا من السلاطة ، فنأكل حتى نشبع تماما .. ثم يتبين أن هذا كله ليس سوى المشهيات ، وان الطعام الرئيسى الساخن من الشوربة واللحم والخضر ، لم يأت بعد !!.. وتكرر هذا الحادث مرارا ، حتى أصبحنا لا نجلس الى مائدة الا ونسأل أولا عما سوف نأكله بالضبط .. لكى نحسب حساب كل شىء !!

ولا يعقد هنا أى مؤتمر صحفى أو اجتماع حول مائدة مهما كان وقت هذا المؤتمر الا وتجد على المائدة أطباق الفاكهة ، وزجاجات عصير الفواكه والبيرة والنبيذ ..

وأصعب ما فى المائدة الروسية .. الانخاب التى يشربونها !!

لقد دعانا الصحفيون فى كييف ــ مثلا ــ الى الغداء .. وكان أمام كل واحد ــ غير الطعام الكثير المألوف ــ أربعة كئوس : كأس للمياه المعدنية ، وكأس للكونياك .. وكأس للفودكا ، وكأس رابع رشيق للشمبانيا .. وكانت تجلس بجوارى سيدة بدينة شقراء .. تضع على صدرها صحبة زهور وعلى قبعتها ريشة طويلة ، وترأس تحرير احدى المجلات . كانت تشرب هذه الكئوس مرة واثنين وثلاثا وكأنها تشرب الماء القراح !

وفى خلال تناول الطعام يقترحون الإنخاب ..

كل واحد من الروس الحاضرين وقف يقترح نخبا !!..

نخب الصداقة المصرية الروسية ..

نخب الشعبين المصرى والسوفيتى .
نخب النيل والفولجا .
نخب الاهرام ..
نخب أبى الهول
وكان لابد أن نرد نحن المصريين هذه الانخاب ، نخبا بنخب
وهذا هو روتين كل وجبة !!
لقد بدأنا بعد ثلاثة أيام فى كييف تتكلم اللغــة الروسية
دوبريا أوترا يعنى : صباح الخير ..
سباسيبا يعنى : متشكر ..
نيتشفوى يعنى : معلهش ..
تى خاروشنكايا يعنى أنت جميلة ..
يا لوبلو تسيبيا يعنى : أنا أحبك !!

الكولخوز

في يوم واحد رأيت فى الاتحاد السوفيتيأقدم واحدث ما عرفه البشر من علاقات !!..

فى الصباح الباكر زرت الرهبان فى « دير بتشورا » الذى يبلغ من العمر ثمانية قرون .. هناك على ربوة عالية عند ضفة الدنيبر ، رأيت القباب العالية تشرف على منظر طبيعى خلاب . ولكن الرهبان لم يجعلوا امكان عبادتهم فى هذه القباب، انما حفروا له فى جوف الصخر حتى وصلوا الى اعمق ما استطاعوا من ظلام.. ولم افهم لماذا ـ وهم المتطلعون الى السماء ـ تركوا القمة المشرقة العالية ، وهبطوا الى الجحور الرطبة المظلمة ؟!!..

وعندما وصلت الى باب الدير كان هناك مئات من الناس قد ازدحموا ينتظرون دورهم فى الدخول .. مئات من المتدينين رجالا ونساء فيهم بعض الشباب ، ولكن أغلبهم من العجائز الذين جاءوا يتوكأون ، وقد حمل بعضهم طعاما أغلب الظن انهم سيهبونه للرهبان .

ودخلت مع الداخلين، وحملت شمعة صغيرة كما حملوا، وسرنا

فى طابور من الاشباح والشموع خلف الراهب ، فى سراديب باردة مظلمة ، وقد احنينا رؤوسنا حتى لا تصطدم بالسقف ، سراديب أشبه بسراديب الهرم الاكبر التى تؤدى الى القبر . ومن حين لآخر كنا نرى فجوة قد فغرت فاها ، ثم نعرف ان أحد القديسين قد دفن فيها ، أو نصطدم بجسم من الخشب تتبين انه تابوت يضم قديسا آخر .. وفى حجرات صغيرة لا تضيئها سوى الشموع فى الايدى ، وقفت جماعات من النساء المتدينات يرتلن وينشدن .

وبعد ساعة انقبضت فيها الانفاس ، من الظلمة والجو الرطب وجثث القديسين والشموع ، خرجت مرة أخرى الى سطح الجبل ، وعبرت الدنيبر العريض فى الطريق الى (الكولخوز) ..

و « الكولخوز » هو المزرعة الجماعية .. والمزرعة الجماعية هى وحدة الانتاج فى ميدان الزراعة .. كما أن المصنع هو وحدة الانتاج فى ميدان الصناعة ..

ولنتخذ « كولخوز كالينين » هذا الذى زرته مثلا نفهم منه نظام المزارع الجماعية هناك ..

ان « كولخوز كالينين » عبـارة عن قرية صـغيرة مساحتها ٤٧٠٠ هكتار ، وتعدادها ٢٥٠٠ نسمة .. تتكون منهم ٩٤٠ أسرة ، وعدد الذين يعملون فى القرية من هؤلاء السـكان يبلغون الالف وهى نسبة كبيرة لان الرجال والنساء يعملون على السواء ، أما عدد الاعضاء المقيدين فى الحزب الشيوعى منهم .. فهو ٣١ ..

والارض فى الكولخوز ليست مملوكة لاحد .. فالكولخوز كله ملك لاهله جميعا ، تديره بالنيـابة عنهم ادارة ينتخبونها ، وايراد الكولخوز يوزع عليهم لكل حسب عمله ..

وادارة الكولخوز أشبه بوزارة صغيرة للقرية تتكون من مدير وعشرة أعضاء بينهم فى كولخوز كالينين امرأتان .. ينتخبهم الفلاحون مرة كل سنتين .. وعلى الادارة أن تقدم تقريرا مفصلا عن عملها فى اجتماع يحضره الفلاحون جميعا أربع مرات فى السنة ، ومن حق الفلاحين أن يعزلوا المدير أو الادارة كلها فى أى وقت يشاءون ...

وعمل الادارة يبدأ بأن تضع برنامجا للسنة تحدد فيه أنواع النباتات التى سوف يزرعها الكولخوز ، والحيوانات التى سيربيها، والمساحات التى تخصص لكل محصول .. تماما كما تضع أى وزارة برنامجا وميزانية للسنة المقبلة ، وهى تحدد نوع المحاصيل وكمياتها بناء على الخطة العامة التى تضعها الدولة ـــ أى الحكومة المركزية ـــ للانتاج الزراعى فى البلاد كلها ...

وبعد ذلك تقوم الادارة بتقسيم العاملين والعاملات فى القرية الى فرق كل فرقة تخصص لفرع من فروع العمل فى المزرعة ... ففى كولخوز كالينين مثلا توجد : ٤ فرق للعمل فى الحقول وفرقتان لبساتين الخضروات وفرقة لاعمال البناء وفرقة للاعمال الميكانيكية وفرقة لحديقة الفواكه وفرقة لشق الطرق وصيانتها ، وفرقة لخدمة الماشية ..

وادارة الكولخوز تشرف على عمل هذه الفرق وانتاجها كما تشرف ادارة أى مصنع على فروع العمل فيه ..

وفى نهاية كل محصول تبيع ادارة الكولخوز الى الدولة نسبة محددة من انتاجها ، وبسعر حددته الدولة من قبل ، وتبيع الباقى فى السوق الحرة بأى سعر تستطيع أن تبيع به .. (فمزرعة كالينين

مثلا تبيع الطماطم للدولة بسعر ٣٠ كوبيك وفى السوق الحرة بسعر ٥٠ كوبيك) .. ثم تدفع الادارة للدولة الضريبة المقررة على الكولخوز وهى ١٦٪ من ايراده .. ويبقى لها بعد ذلك صافى الايراد .. تنفق منه على مرافق الكولخوز وتوزعه على الفلاحين.

والفلاح يأخذ نصيبه من ايراد الكولخوز فى صورة أجر يتناسب مع مقدار عمله ..

ومقدار العمل لا يقاس فى المزرعة بالساعة ، ولكن بكمية الانتاج .. فالعمل فى الكولخوز كله مقسم الى (وحدات) : حلب ٣٠ لترا من اللبن مثلا يعتبر (وحدة عمل) ، وجمع ثلاثة ارباع هكتار من حشيش المواشى يعتبر وحدة عمل ، وهكذا ، بحيث يتساوى الجهد المبذول فى الوحدة أيا كان نوع العمل فى الماشية أو الزراعة .. أو الميكانيكا أو غيرها ...

و (وحدة العمل) لها أجر محدد . فى العام الماضى مثلا كان أجر وحدة العمل فى كولخوز كالينين ١٥ روبل فمن يعمل وحدة واحدة فى اليوم يأخذ ١٥ روبل ، ومن يعمل عشر وحدات يأخذ ١٥٠ روبل ...

أى أن لكل فلاح .. حسب مجهوده .

ومن الوسائل التى يتبعها الكولخوز لتشجيع الفلاحين على زيادة جهدهم.. منح جائزة ضخمة لاكثر الفلاحين انتاجا فى نهاية كل عام، وآخر جائزة فى كولخوز كالينين نالتها فلاحة اسمها (ناديا ناليس) استطاعت أن تنجز ٩٥٠ وحدة من العمل فى موسم الحلب أى أنها انتجت فى هذا الموسم حوالى ثلاثة آلاف لتر من اللبن .. وكولخوز كالينين يملك ٧٥٠ رأسا من البقر و ٥٠٠ خنزير

و ٢٥٠٠ من الدواجن ومائة من الخيل وعشر سيارات نقل •• أما الجرارات والآلات الزراعية الضخمة •• فهى ليست منتشرة على نطاق واسع بعد••• فالكولخوز لا يملك جراراته وآلاته الميكانيكية الضخمة ، انما توجد محطات حكومية تؤجر الجرارات والآلات للمزارع الجماعية ، ولكنهم يعملون لليوم الذى تنتشر فيه الجرارات والآلات حتى تملكها الكولخوزات ويصبح العمل الزراعى كله آليا •••

هذا عن البناء الاساسى للمزرعة الجماعية •••

ولكن المزرعة الجماعية فيها جانب من الملكية الفردية أيضا • فكل فلاح يملك ــ ملكية فردية ــ قطعة أرض خاصة به تبلغ فى العادة حوالى نصف هكتار ، أى فدان كامل يقيم فيها بيتا، ويزرع الباقى منها بما يشاء ويربى من الدواجن والمواشى ما يشاء ، ويبيع انتاجه منها كما يستطيع •• أى أنه يمارس فيها كل حقوق الملكية الفردية بما فيها البيع والميراث •••

وقد قلت ان ادارة المزرعة الجماعية أشبه بوزارة صغيرة •• وهى من أجل ذلك مسئولة عن كل المؤسسات الاجتماعية فى المزرعة •• والمؤسسات الاجتماعية فى كل مزرعة هى : مستشفى ومدارس المرحلتين الاولى والثانية ، ورياض الاطفال، ودار حضانة تضع فيها الامهات العاملات ــ وكلهن عاملات ــ اطفالهن الذين لم يبلغوا سن المدرسة تحت اشراف مربيات وهى مؤسسات كلها آية فى النظافة والنظام وتشترك الدولة مع ادارة الكولخوز فى الانفاق عليها وتزويدها بالموظفين ••

وادارة المزرعة تتخذ مقرها فى مبنى يتكون من قاعة كبيرة تعقد

فيها اجتماعات الفلاحين ، تملؤها صور ماركس وانجلز ولينين ، وحجرة لمدير المزرعة علقت فيها صـــور بولجانين وخروشتشوف وقد خطر لى أن أنظر فى المكتبة الصغيرة الموجودة فى الحجرة .. فوجدت فيها مؤلفات ستالين ولينين ، وكل القصص التى ألفهـا الروائى الفرنسى بلزاك ..

وكان لا بد لكى تتم الجولة من زيارة أحد بيوت الفلاحين ، ودخلت بيت أحد الفلاحين عفوا بلا اختيار .. انه ككل البيوت فى المزرعة مزود بالكهرباء .. وحجراته صـغيرة ، ولكنه نظيف ومنظم الى درجة مدهشة ، وهو مزود بأفران التدفئة ، والنوافذ كلها مغطاة بالستائر الرخيصة النظيفة ، وقادتنى الفلاحة ربة البيت الى مطبخ مرتب . وفى صدر البيت رأيت (الساموفار) الروسى المعروف الذى يصنعون فيه الشاى .. وفى أحد الاركان وجدت صورة كبيرة معلقة على الحائط وتحتها كتاب تحيط به شمعتان .

الصورة للعذراء مريم ...

والكتاب الذى تحيط به الشمعتان هو الانجيل !!.

*

قلت للمرافقين بعد ان فرغت زيارتنا للمزرعة الجماعية :

ـ اننى لا أرى النظام الشيوعى مطبقا هنا .. ان المزرعـة الجماعية ليست كالمصنع فى علاقتها بالدولة التى تنوب عن المجتمع كله . المصنع يعمل لحساب الدولة مباشرة والعمال فيه يأخـذون اجورا عن عملهم ، أما المزرعة الجماعية .. فالحكومة تأخذ منها ضريبة فقط .. فلا يمكن القول بأن الارض فى روسيا كلها ملك للشعب الروسى كله ، انما الواقع ان أرض كل مزرعة ملك لاهالى

المزرعة فقط .. والمزارع يختلف رزقها .. فمزرعة خصبة الأرض ومزرعة أرضها أقل خصوبة ، ومزرعة تزرع الفاكهة التى تدر ربحا كبيرا ومزرعة تزرع القمح فحسب ..

ثم ان النظام الراهن فى الزراعة قد أدى الى وجود ثلاثة أسواق للسلع فى داخل الاتحاد السوفيتى لها ثلاثة اسعار مختلفة ... فالطماطم مثلا تسلم المزرعة جانبا من محصولها للدولة ، وتبيعها الدولة للمستهلكين بسعر محدد ، وتبيع المزرعة باقى محصولها من الطماطم فى السوق الحر بسعر آخر ، ثم هناك قطعة الارض الصغيرة الخاصة بالفلاح كفرد .. اذا زرعها بالطماطم ، فانه يبيعها بمفرده ولحسابه الشخصى ربما بسعر ثالث ، وقد زرت سوق الخضار مرة فلاحظت أن كل سلعة لها سعران السعر الرسمى والسعر الحر ، فاللحم الذى تبيعه الحكومة ثمنه ١٨ روبل للكيلو ، والذى تبيعه المزارع الجماعية أو الافراد ثمنه ٢٨ روبل ... باذنجان الحكومة ثمنه ٦ روبل وباذنجان المزارع الجماعية والافراد ثمنه ٨ روبل .. وسلع الحكومة تنفد أولا بالطبع ، ثم يبدأ المستهلكون فى شراء سلع المزارع والافراد ، وقد رأيت فى بعض محطات السكك الحديدية فى القرى فلاحات يجلسن على جانب الطريق ويبعن انتاجهن من الجبن والخضر ...

فالسلعة الواحدة اذا لها أكثر من سوق وأكثر من سعر وهو وضع معقد ، وقد يكون غير عادل بالنسبة للمستهلك ..

قلت هذا الكلام للذين رافقونا ولمن قابلناهم من الخبراء ، وكان همى من هذه الاسئلة وغيرها أن أعرف هل صحيح أن روسيا تعدل عن النظرية الماركسية الاصلية وتبيح الملكية الفردية والنشاط

الفردى ؟.. وهل هذا العدول (نظرى) أى تعديل فى النظرية نفسها أم عدول أمام الامر الواقع لعدم امكان تطبيق النظرية بحذافيرها ؟..

أما وجهة النظر التى استخلصتها منهم فهى : ان روسيا الآن ليست دولة شيوعية ، ولكنها دولة اشتراكية فحسب ، وان الشيوعية وان كانت على الدوام غاية القادة الروس . . الا أنهم لم يفكروا أبدا فى أن يطبقوها مرة واحدة ، لانهم يعرفون ما يكتنف ذلك من مخاطر ، وما يجب أن يلازم هذه الخطوة من حرص وحذر ..

ومنذ بداية الثورة فى روسيا كانت المشكلة الزراعية احدى العقد التى واجهتها ، وقد أدرك لينين فى ذلك الوقت أنه من المستحيل تطبيق نظام الملكية الجماعية فى الريف الروسى دون ان يقع نظامه الجديد فى صدام عنيف مع الفلاحين الذين كانوا يرون فى امتلاك الواحد منهم لقطعة أرض غاية ما يصبون اليه من أمل..

وازاء هذا الموقف أقدم لينين على تقسيم الاراضى الى ملكيات صغيرة .. وعندما هاجم كثير من الزعماء والكتاب لينين على هذه الخطوة الغير اشتراكية ، والغير شيوعية من باب أولى ، قال :

ــ نعم ان تقسيم الاراضى الى ملكيات صغيرة ليس عملا اشتراكيا ، ولكنه خطوة تقدمية ديمقراطية ، وان الماركسية ليست حقائق منزلة ، انما هى دليل يرشد الى الطريق فحسب ..

وقد ظل هذا النظام سائدا فى روسيا حتى أقدم ستالين على تحويل الملكية الفردية الى ملكية جماعية ، فى صورة الكولخوزات بنظامها الاشتراكى ــ لا الشيوعى ــ الراهن ، وبالرغم من ان هذا

التغيير قد حدث بعد أن رسخت أقدام الثورة سنوات طويلة ..
فقد صادف مقاومة عنيفة من مجموعات كبيرة من الفلاحين، ذهبت
ضحيته آلاف من الارواح !!.

ولا شك أن هذا الثمن الكبير الذى دفع لتحويل الملكية من
فردية الى اشتراكية ، كان من الاسباب التى جعلت ستالين فى
أواخر أيامه يرفض فكرة تحويل هذه الكولخوزات الاشتراكية
الى النظام الشيوعى الكامل خصوصا وان الفلاحين الآن قد أحبوا
مزارعهم الجماعية ، وأصبح أهل كل مزرعة يرون انها ملك خاص
لهم ، فقد لا يوافقون على أن تندمج كل المزارع فى جهاز واحد ،
يكونون هم فيه عمالا وموظفين ..

وقد حدث أن انتقد بعض الاقتصاديين الروس الوضع المعقد
الراهن الخاص بالاسواق المتعددة والاسعار المتعددة ، وهاجموا
النشاط الفردى الذى ما زال موجودا فى الريف السوفيتى الى
الآن ، ولكن ستالين رد على هذه الانتقادات بما معناه أن الوضع
الراهن يجب أن يبقى زمنا آخر كضرورة انتقالية وقال انه لكى يتم
الانتقال الى النظام الشيوعى يجب أولا أن تتوفر عدة شروط أهمها:
ان يتم تصنيع الزراعة تماما بحيث يصبح كل العمل فى المزارع آليا
وتصبح المزرعة مصنعا بالفعل ، وهذا لن يكون الا باعطاء الاولوية
فترة طويلة لصنع الآلات الثقيلة التى تصنع الآلات الزراعية نفسها،
وثانيا أن يصل الانتاج الزراعى الى درجة تكفى كل حاجات
المستهلكين الامر الذى لم يتم بعد .. وثالثا أن يرتفع المستوى
الثقافى فى الريف الى درجة تسمح للفلاح بأن يتفهم النظام الجديد،
وأن يقتنع به ..

والشرط الاول فى هذه الشروط الثلاثة يكشـف لنا عن أن الخلاف الشهير مع مالينكوف حول أولوية الصناعة الثقيلة ، ليس متصلا بصناعة الاسلحةوالموقف الخارجي فحسب.. ولكنه متصل بصميم النظام الشيوعى وتوفير الامكانيات لتطبيقه ..

وقد كرر خروشتشوف هذا المعنى ، فى أول تقرير له بعد ان أصبح سكرتيرا عاما للحزب سنة ١٩٥٣ فقال ان النظام الحالى فى الزراعة مؤقت ، ولكنه لازم ما دامت الزراعة لم تصل الى الدرجة المطلوبة بعـد (وما دام الانتاج لم يلب حاجـات الكولخوزيين أنفسهم كلها بعد) ...

وقد عرفنا فى خلال زيارتنا للاتحادالسوفيتى جانبا من الجهود الهائلة التى يبذلونها لزيادة الانتاج الزراعى ...

انهم الآن يستصلحون مساحات هائلة فى قازاخستان الى ٧٠ مليون هكتار .

وهم يجرون تجارب مستمرة لزراعة النباتاتالمختلفة فى أماكن وأجواء غير الاجواء التقليدية التى لا تنبت الا فيها فالقطن مثلا كان لا يزرع الا فى مناطق دافئة كجورجيا وارمينيا وأزبكستان ، ولكنهم فى كل سنة يرتفعون بزراعته شمالا ، حتى وصلوا به الى ضواحى موسكو ...

مع وزير الثقـافة ...

كان فى برنامج زيارة كييف ، أن نزور الرفيـق لينجين وزير الثقافة ...

والثقافة والتعليم لها فى كل جمهورية ــ وبالتالى فى الاتحاد السوفيتى كله ــ ثلاث وزارات ... وزارة المعـارف ، وتشرف على المدارس الابتدائية والثانوية ومدارس المعلمين ووزارة التعليم العالى وتشرف على الجامعات والمعاهد العليا ، ثم وزارة الثقافة ، وهى التى تشرف على دور الطباعة والنشر ، والاذاعة ، والسينما ، والمسرح والموسيقى والمكتبات العامة ، ومدارس الموسيقى والفن ... أى على النشاط الفكرى والفنى والادبى بوجه عام ...

ولكننا لم نسأل الرفيق لينجين عما يدخل فى اختصاصه فقط، فقد انتهزنا الفرصة وسألناه عن نظم التعليم فى الاتحاد السوفيتى بوجه عام ...

وكانت هذه أول مرة ندخل فيها مبنى احدى الوزارات ...

المبنى ضخم ونظيف جدا . والممرات والسلالم ليست مزدحمة بالناس . وعلى المكان كله يخيم جو من السكون والهدوء ...

ولاحظت ان كل الفراشين وعمال المصاعد والسعاة، من النساء المتقدمات فى السن أيضا ... انهم هنا لا يعطلون قدرة رجل وقوته فى اعمال بسيطة تافهة كالضغط على ازرار المصعد أو نقل الملفات بين مكاتب الموظفين أو فتح الابواب للزائرين. فهذه اعمال يمكن ان تنهض بها امرأة متقدمة فى السن دون ارهاق ...

وكان الوزير أصلع الرأس من الامام ، متهدل الشعر من الجانبين وقد انزلقت النظارة على أنفه فبدا أقرب الى شكل عازف الكمان العجوز ...

وعلى جدران الحجرة الواسعة رأيت صور : ماركس وانجلز ولينين وستالين وخروشتشوف ...

وحدثنا الوزير أولا عن اوكرانيا، وتاريخها الفكرى والثقافى.

لقد كانت اوكرانيا قبل الثورة بلدا مضطهدا له قومية مضطهدة . كانت روسيا الام تكبت الحركات الفكرية أو النفسية ذات الطابع القومى . وكانت تقاوم انتشار اللغة الاوكرانية . وكانت اوكرانيا تقاوم ذلك بلا انقطاع ، وتطالب بالحكم الذاتى.

وعندما انتصرت الثورة ، كانت مشكلة القوميات من اكبر واعقد المشاكل التى واجهتها . وقد عهد الى ستالين بحل هذه المشكلة ، فنجح فى الحل ، على اساس الاعتراف بهذه القوميات المختلفة ومنح هذه الجمهوريات نوع من الحكم الذاتى ، واعطاء الطابع القومى للثقافة الحق فى التقدم والازدهار .. وقد تم ذلك على هدى كلمة قالها لينين، وهى (لكل جمهورية ولكل شعب ثقافة قومية الشكل ، اشتراكية المضمون) .. فما دامت كل جمهورية سوف تصنع ثقافة تنطوى على التفكير الاشتراكى ، فهى حرة

بعد ذلك فى ان تغلفها فى الثوب القومى الخاص بها •••

وقال الوزير أيضا : ان نسبة الامية فى اوكرانيا قبل الثورة كانت تصل الى ٩٠ ٪ وان المدارس كانت تعد على اصابع اليد ، وكانت المدارس العليا بالذات قاصرة على ابناء التجار والاقطاعيين الكبار • وقد تغيرت بعد الثورة فقضى على الامية قضاء تاما قبل سنة ١٩٤٠ • وأصبح الجميع يقرأون ويكتبون ، سواء فى ذلك الاطفال أو العجائز والشيوخ •••

وأوكرانيا هى البلد التى تتعرض للحرب فى الاتحاد السوفيتى اكثر من غيرها • فهى السهول التى تؤدى الى اوروباء وقد شهدت خلال ثلاثين سنة فقط ، ثلاثة حروب مدمرة ، كانت تجتاح ارضها كلها •• الحرب العالمية الاولى ، والحرب الاهلية ، ثم الحرب العالمية الثانية •••

وكانت هذه الحروب تدمر المؤسسات الثقافية مع غيرها من المؤسسات • فلما انتهت الحرب الاخيرة مثلا ، كان التلاميذ يذهبون الى المدارس فى (ورديتين) أو فى ثلاث ورديات ، حتى تتاح للجميع فرصة الدراسة •

ودور الحضانة ورياض الاطفال، التى تتعهد الطفل منذ ولادته حتى السابعة أو الثامنة من عمره ، ليست اجبارية •••

اما التعليم الابتدائى والثانوى فاجبارى • ومدة هذا التعليم الاجبارى عشر سنوات فى المدن وسبع سنوات فى الريف• وفى نهاية هذه المرحلة يدخل المتفوقون الحاصلون على درجة معينة من النجاح الجامعات والمعاهد العليا • أما الباقون فيختارون المهن التى يعملون فيها ، طبقا لحاجات الانتاج فى البلاد •• فالدولة

تحدد ـ مقدما ـ عدد الفنيين المطلوبين فى كل فرع ، طبقا للبرنامج الاقتصادى العام ...

والتعليم فى المرحلة الاجبارية مجانى .

والطالب المتفوق الذى يدخل الجامعة يدفع رسم دخول قدره ٢٠٠ روبل فى السنة ، وتدفع الدولة لغير القادرين فى أول العام الدراسى اعانة شهرية تتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ روبل طبقا لدرجة تفوقه فى دراسـته .. وقد سألت الرفيق لينجين عن نسبة الذين يحصلون على هذه الرواتب من الجامعة، فقال: حوالى ٨٠ فى المائة.

وبعد أن يتخرج الطالب ، يلتحق بعمل . وأجـر العامل أو الموظف يقـدر على اساس العمل الذى يقـوم به لا على اساس الشهادة التى يحملها ...

ولا تغلق ابواب التعليم العالى امام الـذين لم يتمكنوا من مواصلة دراستهم ...

فالمصانع مثلا تهيىء لكل من يعمل بها ان يواصل دراساته فى المساء ، أو أن يدرس فى احدى الجامعات بالمراسلة ، حتى يحصل على الدرجة الجامعية التى يريدها . والمصنع يمنحه اجازة شهرا بمرتب كامل لكى يؤدى الامتحان ...

وسألت الوزير أخيرا عن الرقم التقريبى للمدارس فقال : ان فى اوكرانيا كلها ٣٦ ألف مدرسة ، وعدد التلاميذ ستة ملايين ..

وبوصفه وزيرا للثقافة والفنون ، قال : ان من هذه المدارس ٢٠٠ مدرسة موسيقية فقط !

القطار ...

مرت أربعة أيام علينا فى كييف . وفى اليوم الرابع اقيمت لنا حفلة وداع سخية ، وبعد النخب الحادى عشر ، توجهنا الى محطة السكة الحديد لنركب القطار الذاهب الى موسكو ...

سنترك اذا هـذه المدينة التى لن نراها مرة أخرى فى أغلب الظن . سنترك هؤلاء الناس الطيبين، الريفيين فى الكثير من طباعهم، وابرزها المبالغة فى الاحتفاء بالضيف واظهار الود له بلا تحفظ .

سنترك (سرجى سليبجينكو) نائب وزير الخارجية الانيق ، الذى كنا تنزل فى الصباح الباكر فنجده فى انتظارنا ، ولا يتركنا الا اذا أوينا الى حجراتنا آخر الليل . وسنترك الشاب الرقيق المهذب (يورى) الذى كان ضمن الوفد الروسى فى مؤتمر جنيف، والذى جلس يحدثنى عن جو هذا المؤتمر طويلا .. وسنترك (لوكاكيزا) رئيس جمعية العلاقات الثقافية المعجب بنفسه ، المتعصب لبلده ، الذى لا يتحمل أى ملاحظة على بلاده فهو يفندها فى عنف ..

اثنان فقط من المضيفين ركبا معنا القطار مساء ذلك اليوم : هيلين استيفانوفا ، المترجمة الخاصة للوفد ، ورجل آخر اسمه

(شكير دولت خان سبحان كولوف) ...

ان صاحب هذا الاســم الغريب هو المشرف والمسئول عن الرحلة كلها . هو المسئول عن برنامجها ونفقاتها وراحة الاعضاء فيها وتوجيه المرافقين لهم ... وهو ــ كما يدل الاسم ــ مسلم، من أصل تترى ، اسيوى .. فهو أسمر ، اسود الشعر .. يتحدث اللغة الازبكية والتركية والروسية . أما اللغة العربية ، فهو يقول انه لا يعرفها . ولكنه كثيرا ما يفهم ماذا نريد ان نقول قبل أن يترجم اليه . هل هو الذكاء الخارق ؟ أم أنه يعرف اللغة العربية ويتظاهر بانه لا يعرفها ؟..

فى خلال الايام الاربعة التى مضت لم نستطع الوصول الى الحقيقة ، فكل ما يحيط بالسيد شكير غامض غريب . انه لا يتكلم الا نادرا، ولا يبدو فى الصـــدارة ابدا . ومع ذلك فهو من النوع الــذى تكتشف بعد حين أنه أكثر الحاضرين أهمية.. وان الجميع يكنون له احتراما خاصا ..

ثم انه يلبس ثيابا بالغة الاناقة . البذلة من الصوف الانجليزى والاحذية انجليزية ثمينة والقمصان حريرية من غرب اوروبا . لقد علمنا أنه عمل فترة طويلة فى ايران ، حيث يمكن شراء البضــائع الانجليزية والامريكية بسهولة وباسعار معقولة . فماذا كان يصنع فى ايران ؟.. وفى الفترات العصيبة التى مرت هناك بالذات ؟.. انه من النوع الذى يستطيع ان يمسك فى انامله خيوطا كثيرة دقيقة دون أن يظهر على السطح ...

ان الفرصة سانحة الآن لكى نحل لغز هذا الرجل . لقد اختفت الضجة من حولنا ، وسنبقى الآن معه هو وهيلين عشرين ســاعة

متواصلة فى القطار قبل أن نصل الى موسكو ...

عشرون ساعة فى القطار ؟.. هذه تجربة جديدة تماما بالنسبة الى ...

أن «المسافة» فى هذه البلاد الشاسعة شيء آخر غير «المسافة» التى نعرفها فى بلادنا ...

وفى هذه البلاد يستطيع القطار أن يركض بك أياما دون أن تصل الى نهاية ، ودون أن يقاطعك بحر أو جبل .

وهذه «المسافة» ذاتها هى التى اكسبت هذه البلاد مناعة لا نظير لها،حتى سماهاعلماء الجغرافيا القدامى«روسيا التى لاتلين». لم يقتحم هذهالمغازات غاز الا كلتقدماه ثم سقط اعياء فىمنتصف الطريق . ترى كيف تكون هذه « المسافة » فى الشـتاء عند ما يكسوها الجليد ؟.. انها تزداد طولا ووحشة واتساعا . ومن هذه المسافة استمد الروس تكتيكهم العريق فى مقاومة العدو.الانسحاب امامه ، وتدمير كل شيء مهما كانت قيمته ، وترك العدو امام وحش «المسافة» وجها لوجه .. فاذا اعياه نضال هذا الوحش ، وبات مثخنا بالجراح ، انقضوا عليه ، وجعلوا انسحابه شيئا أبشع من الموت ...

وها انذا أقطع هذه الارض التى دارت فيها معارك « الحرب والسلام » ... وأمامى عشرون ساعة كاملة قبل ان يتغير المنظر ونصل الى موسكو ...

والرفيق شكير دولت خان سبحان كولوف ما زال يمنعك ادبه وذكاءه والطواءه من محاولة اقتحامه ...

وذكرت بحثا قديما قرأته فى احدى المجلات الادبية عن دلالة

القطار فى قصص الادباء الروس !..

لا اذكر هذا البحث بوضوح ، ولا أذكر اين قرأته بالضبط .
ولكنه كان يقول بوجه عــام : ان القطار لعب فى الادب الروسى دورا لم يلعبه فى أى ادب آخر ، حتى وصل الى مرتبة الرمز ، ذو الدلالة ...

ولا شك ان هذه الظاهرة أيضا ترجع الى هذا العامل الجغرافى القوى : المسافة ...

فى الجاهلية العربية مثلا ، كانت هناك ظاهرة التنقل . كانت القبائل لا تبقى فى مكان واحد الا ريثما تنتقل الى مكان آخر . ومن هنا وجدت « الاطلال » ، وآثار الديار التى ذهبت ، كشىء يقف عنده الادباء والشعراء طويلا ...

وفى روسيا ، كان من شأن « المسافة » ان تجعل السفر شيئا غريبا مثيرا يستوقف الادباء ...

انك هنا لا تركب القطار ساعة أو ساعات ، انما تركبــه ليالى واياما . أليس هذا القطار جوا غريبا لكى تجرى فيه حوادث قصة أخاذة ؟.. ناس من شتى الانواع والاصناف ، يلتقون فى دواوين القطار ، ويختلطون فى بوتقة واحدة لعدة ايام متوالية ، ودون ان يكون هناك ما يشغلهم الا ان يتأمل بعضهم بعض ؟..

ثم انه كثيرا مايمثل نوعا من القدر ، أو من الارادة التى تطوى ارادة البشر . انه ينتزعك من مكان عزيز مثلا لا تريد ان تتركه . وهو هنا لا يوصلك الى مكان آخر بسرعة فتنسى ، انما هو يبقيك وينضجك فوق نار هذا الشعور زمنا طويلا ، قلبك وعقلك يتلفت فيه الى الوراء ، وهو آلة صماء تمضى الى الامام لا تلــوى على

شيء ••• ولعله كان أيضا أول مظهر لمسه عامة الناس للآلة الصماء التى صنعها الانسان ثم أصبحت تتحكم فيه •••

هذه المشاعر والاجواء تجدها كلها فى كثير من قصص الكتاب الروس الكلاسيكيون •••

قصة (انا كارنينا) لتولستوي مثلا •••

تقرؤها ، أو تراها على الشاشة ، فتخرج والقطار فى ذهنك بطل من ابطال القصة ••• تماما مثل (أنا) و (فرونسكى) •••

فالبطلة (أنا) تقابل البطل (فرونسكى) لاول مرة فى القطار • وفى أول لقاء يقع حادث كريه هو ان القطار قد دهم أحد عمال المحطة وقتله • ومطاردة البطل للبطلة تجرى فى القطار • وتنتهى القصة أيضا فى محطة السكة الحديد ، عندما قررت أنا ان تنهى حياتها ، وذكرت الحادث الذى وقع لعامل السكة الحديد ، فالقت بنفسها تحت عجلات القطار • كان القطار هو مسرح القصة كلها تقريبا • وكان هو الرمز فى حالات كثيرة : يتوقف القطار فجأة ، أو ترسل صفارته أنينا حزينا فى لحظة معينة ، أو تدير البطلة عينها فى الديوان الضيق الذى يملؤه اغراب فتشعر بالاختناق والحيرة فى حياتها كله ؛ وتطل من النافـذة والقطار مسرع فتحس بأنه لا مهرب لها •• وكلها أشياء لها دلالتها فى حوادث القصة ومشاعرها •

وفى رواية (البعث) لتولستوى أيضا ، وقد رأيتها فى السينما ولم اقرأها ، شعر البطل أنه هو الذى صنع مأساة البطلة ، حتى أصبحت عاهرة ثم قاتلة وحكم عليها بالنفى الى سيبيريا ، وقرر ان يخلع ثياب القاضى ويسافر مع المذنبين الى سيبيريا لكى يكفر عن خطيئته •• وكان القطار أيضا هو الرمز •• كان القطار القدر ،

والرحلة التى لا آخر لها بين هذا القطيع من طريدي العدالة الزائفة، كان هذا كله هو رمز التكفير الاليم .

هل ما يزال القطار يلعب نفس الدور فى الادب السوفيتى الحديث ؟.. أم ان قدم العهد به ، والعلم الذى يقهر المسافة يوما بعد يوم ، وتحول الانسان من عبد للآلة الى سيد لها ، كل هذا قد انهى الدور الذى لعبه القطار ؟..

لا أدرى بعد ...

ولكننى انفقت فى هذه الخواطر ليلة كاملة قبل ان انام من التعب . واستيقظت فى اليوم التالى مع الصباح لانظر مرة اخرى بعين الكتاب الروس القدامى الى هذه العربة التى تركض منذ الامس بغير ملل ، حاملة هذا المجتمع العجيب : ناس من مصر ، وفتاة من موسكو ، ورجل غامض من آسيا ، وضباط من الجيش الاحمر ، وزوج وزوجة وأولاد ... ولكننى لااستطيع ان اتحدث مع واحد من هؤلاء . ان الذين يعرفون لغات أجنبية هنا نادرون، والتفاهم بالاشارة عبث ، لا يصلح لتفهم أى موضوع ، فلا شىء الا ان ننظر من النافذة ...

والمنظر خارج القطار لم يتغير منذ أمس . الحقول التى لا آخر لها وأشجار الغابات العالية ، وقرى متناثرة ، ومحطات صغيرة تجلس الفلاحات على ارضها وقد فرشن امامهن الجبن والزبد والخضر والفاكهة يعرضنها للبيع ، واطفال خارج اسوار المحطة يجرون ، ورجل أو امرأة عند كل مزلقان ، وصفارة القطار يرتفع صرتها كل حين ...

كنوز موسكو

لاحت لنا موسكو ...

كان أول ما بدا منهـا مبنى الجامعة الابيض الهائل ، الـذى تترامى أطرافه على مساحة شاسعة، ويرتفع قلبه ستة وثلاثين طابقا، يعلوها برج طويل يحمل فوق قمته نجمة حمراء ...

وقالت لى هيلين : ان الجامعة مقامة على مكان مرتفع بحيث يراها القادم الى موسكو سواء كان قادما بالسكة الحديدية ، أو بالسيارة ، أو من المطار ...

وعندما انطلقت بنا السـيارات الى قلب موسـكو ، خطفت ابصارنا قباب الكرملين المذهبة تعكس شمس الغروب ..

انها نفس القباب التى خطفت أبصار نابليون مرة فجاء اليهـ على رأس نصف مليون جندى . فلما بات تحتها ليلة ، واغلق جفنه ظانا أنه ملكها ، اشتعل فيها الحريق الكبير ، واسرع هو ينجو بنفسه وجيشه من النيران والثلوج ...

وهى أيضا نفس القباب التى خطفت ابصار هتلر بعد اكثر من مائة سنة ، فجاء اليها على رأس ثلاثة ملايين من الجنود . ولكن

كان أقل حظا من سابقه ، فلم يبت تحتها ليلة ولا اكتحلت ببريقها عيناه ، انما كان كل حظه ان يدق ابوابها من بعيد، ثم ينكص عائدا حتى مخبئه الارضى ، حيث وضع المسدس فى فمه ، وأفرغ الرصاص !

ووصلت السيارة الى ميدان فسيح يضج بالحركة ، ثم توقفت أمام مبنى ضخم ...

هذا هو فندق (موسكفا) ، احد الفنادق الاولى فى موسكو .

انه مبنى هائل يتكون من اربعة عشر طابقا ، ويشغل مساحة واسعة .. فى الدور الإرضى منه توجد قاعات ضخمة ، ومحطة للمترو تحت الارض ، وبعض محلات صغيرة لبيع طوابع البريد والهدايا ، ورجل يمسح حذاء زبون يجلس على مقعد مرتفع .

والفندق يحتوى على ما يقرب من ١٢٠٠ غرفة ، كل غرفة مزودة بحمام وتليفون وجهاز تليفزيون . وفى الدور الثالث يوجد مطعم ضخم ، وفى الدور السابع شرفة واسعة تستعمل كحديقة سطح فى ليالى الصيف ..

كانت حجرتى تقع فى الدور السادس ، ومن نافذتها رأيت مبنى ضخم ظلت نوافذه مضيئة طوال الليل ، ذلك مبنى رئاسة مجلس الوزراء ...

أما الواجهة الاخرى للفندق ، فهى تطل على الميدان الاحمر ، وأبراج الكرملين ...

وقدمت الينا (هيلين) آخرين سيرافقوننا بقية الرحلة : فتاة أخرى تتكلم اللغة العربية هى (ليانا) ... وشاب ممشوق القامة جميل الوجه ، أشبه بنجوم السينما ، اسمه أناتول تشيكوف ..

ـ ألم اسمع هذا الاسم من قبل ؟
ـ نعم ، لقد عملت ملحقا صحفيا فى سفارة روسـيا بالقاهرة ثلاث سنوات .

وذكرت على الفور ان تشيكوف هذا كان فى القاهرة ثم نقل فجأة . وسرت اشاعة قوية بين الدبلوماسـيين الاجانب فى مصر تقول أنه اعدم أو ارسل الى سيبيريا لاسباب غير معروفة !..

وفى صباح اليوم التالى كنا عند أبواب الكرملين ..

هذه المبانى الضخمة الصفراء ، المتجهمة ، وهذا السور الاحمر المرتفع ، بأبراجه السبعة عشر .. هو الكرملين !

ها هنـا تختلط ذكريات أعتى القياصرة وأكثر البروليتاريين تطرفا ، حتى لتصاب الرأس بالدوار !.. وها نحن ندخل الحديقة المستطيلة التى تؤدى الى باب الدخول .. ان الحديقة تحمل اسم الاسكندر ، أشهر القياصرة ، وهى مـع ذلك كانت الحـديقة المفضلة عند لينين ، فيها كان يتمشى كل صباح ويتحدث ، ويتأمل، وتبرق فى رأسه الافكار .. وهذه المسلة الصغيرة ، ماذا تحمل؟.. أسماء كل الاشتراكين من جميع الاجناس ، كل من وضع حجرا فى بناء الفكرة الاشتراكية مهما كان وطنه ، ومهما كان خلافه أو اتفـاقه مع الآخـرين . . باكونين الفوضوى ، تشيرنيفسكى الديمقراطى ، سـان سيمون الفرنسى وأول من استعمل كلمـة اشتراكية..ثم برودون ولافروف ، ثم ماركس وانجلز وبليخانوف الشيوعيون وآخرون كثيرون .

ونجتاز باب الدخول ، الذى يقع تحت أحد الابراج السبعة عشر .. ان الناس الذين يدخلون معنا كثيرون .. وساحة الكرملين

الواسعة أشبه بالميدان المزدحم بالمـارة ، ذلك لان الكرملين ظل منذ انشائهموصدا أمام الناس ، حتىمات آخرسكانه ــ ستالين ــ فتقرر تحويله الى متحف تاريخى ، وفتحت أبوابه للناس منذثلاثة أشهر فقط .

والكرملين يضم بين أسواره العـالية مجموعة من الكنائس والقصور ، كل كنيسة أو قصر له قصة وبناهواحد من القياصرة.. فهذا القصر مثلا ــ أول قصر على اليسار ــ اسمه قصر السلاح ، وقد بنـاه وأطلق عليه هذا الاسـم القيصر بطرس الاكبر سنة ١٧٢١ .. وهو الآن متحف هائل يضم كل الكنوز التى تركهـا القياصرة .. كنوز لا عـد لها ولا حصر ، ولا يمكن أن تقـدر بثمن !..

هناك مثلا قاعة كبرى للعروش فقط .. عشرات من العروش التى صـنعت من العـاج أو الذهب ، والتى طعمت بآلاف من فصوص الماس والجوهر .. هذا عرش « ايفان الرهيب » الذى صـنعه فنانون غربيون فى القـرن السادس عشر . وهذا عرش بوريس جودونوف من الذهب المرصع بمئات الفصوص النادرة، أهداه اليه امبراطور ايران سنة ١٦٠٤ ، فهو أشبه فى طرازهبعروش الاكاسرة .. وهذا عرش ميخائيل رومانوف مؤسس سـلالة رومانوف ، انه مزين بثلاثة عشر كيلو جراما من الذهب فقط !! وهذا عرش يتسع لشخصين ، انه أعجب عرش فى العـالم ، فقد اختلف الشقيقان ايفان وبطرس على العرش ، ثم اتفقـا على ان يكون للبلاد قيصران ، وان يصنع عرش من أجل شخصين، يفصل بينهما حاجز صـغير !.. وعرش بطرس الاكبر .. انه ضـخم

بشكل غير عادى ، لان بطرس كان عمــلاقا هائل الحجم ، طوله أكثر من مترين ، وحذاؤه الموضوع بجوار العرش ، وكفهالمطبوع على قطعــة من الحجر ، يوضحان لنــا مدى ضخامته ولن أذكر بالطبع كل العروش •

وهناك قاعة أخرى للتيجان •• وقاعة ثالثة للعربات ، فيها أندر مجموعة من عربات الركوب والزحافات التى تجرها الخيل على الثلوج ، مما كان يستعمله القياصرة ، كل عربة منها قطعــة من الذهب والحرير والفــن ، كل عجلة فيها تحتوى على عشرات من النقوش والرسوم •

وقاعة رابعة لسروج الخيل •• ان خيول القياصرة أيضا كانت لا تلبس الا الذهب والحجارة الكريمة •• لقد كان الثراء يقاس بما يحمل الجواد من مجوهرات ، كأى غادة مترفة . وكان القيصر من الثراء بحيث تجر عربته عشرات من الجياد !!•• لقد رأيتعلى رأس الجواد الذى كانت تركبه القيصرة كاترين « رشمة » من الذهب فيها الف قطعة بالضبط من الماس والاحجار الكريمة •• غير الحزام والقماش المطرز الذى يغطيه ، فكم قطعة كانت تلبس كاترين نفسها ؟••

وقاعة أخرى للنياشين والمداليات والاختام ••

وقاعة سادسة للثياب ، التىلا يخلو شبر من قماشها من سلوك الذهب أو النقوش المصنوعة من الاحجار الثمينــة •• ان أروع مجموعة فيها هى المجموعة الخاصــة بالقيصرة اليزابيث بتروفنا التى تركت خمس عشرة الف فســتانا من الفساتين الواســعة ، الطويلة ، المعقدة ، الموشاة ••

على أن أعجب هذه القاعات جميعها القاعة الى تضم التحف والمجوهرات . ان العجائب التى فيها تحير اللب .. ووصف تحفة واحدة منها يستغرق وقتا طويلا لما فيها من دقائق وعجائب وأسرار .. يكفى أن أصف ساعة واحدة : الساعة نفسها لا تزيد عن حجم المنبه العادي ، ولكن هذه الساعة قد ركبت فى بناء معقد عجيب من الذهب الخالص طوله يقرب من مترين .. ان فيها نافورة ترسل الماء ، وفيها عشرات من تماثيل الملائكة والطيور والزهور ، هذه الفتحة يخرج منها ملاك كل ربع ساعة ، وهذه يدق فيها جندى أجراسه كل ساعة ، وهذان الطائران اللذان فردا أجنحتهما ، وقد وضع واحد منقاره فى منقار الآخر كأنه يهم بتقبيله .. انه يسقط فى منقار زميله ، كل خمس ثوان ، لؤلؤة !!.. وفى الساعة جهاز داخلى يعيد اللؤلؤ .. فقد كان وقت القياصرة فيما يظهر من اللؤلؤ . لا من الذهب فحسب !!..

وهكذا قاعات وراء قاعات تحتوى على كل ما يخطر بالبال من الاحذية والثياب ، الى آنية الطعام .. كلها من الذهب والجوهر .. حتى تكل العين من رؤية الذهب ، وتضيق برؤية المجوهرات كما يضيق المرء برؤية المائدة بعد أن تكتظ بطنه من الطعام !!..

قاعات فيها ما لا يمكن أن يقدر بمال .. يخرج الناس منها مدهوشين مبهورين .. أما أنا فقد خرجت منها مغيظا !!..

ان ما لا يقدر بمال هنا .. هو الجهد الانسانى المبذول فى هذه الاشياء !..

ان الذهب والجوهر مهما كان الوزن والحجم يمكن أن يقدر بمال .. أما جهد العقول التى فكرت وأبدعت ، والايدى التى

صنعت .. فكيف يمكن أن يقدر ؟

أليس شيئا رهيبا يثير الفـزع أن تتصور أى عبث أنفق فيه آلاف العمال المهرة ومئات العقول البشرية كفاياتها .. حين كان الحرمان الذى لا آخر له يملأ الارض ؟..

انه عبث يفوق كل الحـدود المعقـولة للاستمتاع والانانية والترف .. عبث باهظ الثمن ، فقد كان يمتص الجهـد والفكر والثراء من البلاد كلها لكى يوفر لعشرات أو مئات من الناس هذا الزخرف الفارغ والثراء غير الشريف . ويترك الملايين محرومين من العمل النافع والقوت الضرورى والمعرفة البسيطة .

وقل نفس الشيء عن الكنائس الثلاث ذات القباب المذهبة التى تقف متقابلة فى فناء الكرملين .. انها لم تكن كنائس للناس كلهم ، ولكنها للقياصرة فقط : يتوجون فى واحدة ، ويتزوجون فى الثانية ، ويدفنون فى الثالثة .. والسخاء فى بناء هذه الكنائس الثلاث وفى زخرفتها لا نظير له .. يكفى أن تعرف أن أرض احدى هذه الكنائس مرصوفة بالاحجار «النصف كريمة» كمايسمونها ! وان هذه الارض وحدها تكلفت مليونين من الروبلات الذهب فى ذلك الزمان .. أى ما يساوى مئات الملايين فى هذه الايام !!..

وفى حديقة الكرملين الواسعة تتناثر قطع صغيرة من التاريخ .. هذا جرس كبير يسـمونه « ملك الاجراس » ، لانه أكبـر الاجراس فى العالم ، انه فى حجم بيت صغير !!.. وقد كان معلقا فى أحد ابراج الكرملين ثم سقط فى حريق موسكو على الارض فتركوه حيث سقط .. وهذا « ملك المدافع » وزنه أربعون طنا وطول ماسورته خمسة أمتار ونصف .. و .. و ..

ونخطو فى الحديقة خطوة أخرى ، فيقول لنا جندى المرور : ممنوع !..

اننا بهذه الخطوة نوشك أن نقلب صفحة هائلة من التاريخ ونفتح صفحة أخرى هائلة !.. فهذا البناء كان يسكنه لينين ، وكان يسكنه ستالين ! والشقة الخاصة بكل منهما لم تعد لان تكون متحفا بعد..فكل ما نستطيع أن نراه منها هو هذه النوافذ المغلقة فى الدور الثانى .. أما الدور الاول فان فيه القاعة التى يجتمع فيها — الى الآن — مجلس الوزراءالسوفيتى ، والقاعة التى يجتمع فيها المجلس الاعلى للاتحاد السوفييتى ، أى البرلمان السوفييتى .. ففى كل دورة ، يدب ممثلو العمال والفلاحين فى أنحاء القلعة القديمة ويجتمعون فى قاعة « سفردلوف » التى يحيط بها قصر السلاح ، والكنائس الثلاث .. أما القباب المذهبة فتزاحمها الآن خمسة نجوم كبيرة حمراء ، تعلو خمسة من أبراج الكرملين العالية ، فاذا جاء الليل ، وتحول البناء كله الى شبح أسود كبير ، ظلت هذه النجوم وحدها مضيئة ..

●

ومن أكبر أبراج الكرملين ، تخرج الى الميدان الاحمر ..

وقد طارت شهرة الميدان الاحمر فى أنحاء العالم ، لانهالميدان الذى تجرى فيه الاستعراضات العسكرية والمهرجانات وكل الاحتفالات الرسمية الكبيرة ..

والميدان مساحة مستطيلة هائلة من الارض الفضاء . وعلى الاضلاع الاربعة التى تحد الميدان نرى نفس الشيء : القديم والجديد جنبا الى جنب .. فمن ناحية ، نرى سور الكرملين

المرتفع الطويل •• وفى الناحية المقابلة نرى محلات « جوم » وهي مبنى هائل حوله مالينكوف عندما كان رئيسا للوزارة الى محلات ضخمة تبيع كل شيء ، من الثياب الى الطعام الى الفريجيديرات الى لعب الاطفــال ، تنفيذا لسياسته فى الاكثار من مواد الاستهلاك وتحسين أصنافها •• ان محلات « جوم » هى تمثال مالينكوف المقام فى موسكو !••

وكنيسة القديس فاسيلى هى أروع كنائس موســكو على الاطلاق •• على مساحتها الصغيرة تتساند خمس كنائس وتسع قباب •• الكنائس حمراء اللون أما القباب ففيها الاخضر والاصفر والابيض ••

ولهذه الكنيسة قصــة •• فقد كلف القيصر ايفــان الرهيب خمسة من أعظم المهندسين ببنائها •• فلما فرغوا منها أحضرهم ايفان الرهيب وسألهم : هل تستطيعون أن تبنوا لى كنيسة أروع منها ؟••

وظنوا أنه سيكلفهم بعمل آخر فقالوا : نعم •••

فأمر ايفان الرهيب بفقء عيونهم جميعا ••حتى لا يبنوا لقيصر آخر من بعده كنيسة تفوق كنيسته !!••

نفس القصة التى يحفظها التراث العربى عن سنمار •• الذى أمره الملك ببناء قصر عظيم ، ثم قتله ، حتى لا يبنى قصر ! آخر يشابهه !!••

ونخرج من كنيسة ايفــان الرهيب لنجد طابورا من الناس ، يستغرق طول الميدان الاحمر كله ، وينتهى عند بنــاء مرمرى من اللونين الاحمر الداكن والاسود ، يشبه أهرامات الفراعنة المصريين

المدرجة .

انه قبر لينين وستالين .. وعلى بابه — فى كل ساعات النهار — ترى هذا الطابور الطويل .. نهر من الناس لا يكف عن الجريان!!

واقتربنا من باب الدخول الصغير .

ان الوقوف فى داخل القبر ممنوع . سوف نمر فى الطـابور فقط ، دائرين حول الجسدين ، فيجب أن يتمالك كل واحد منـا حواسه ، ويستجمع أعصابه ، ويحصر كل انتباهه ، حتى لا يفوته شيء فى هذا المرور السريع ..

وندخل باب القبر .. هواء بارد من جهاز تكييف الهواء ، وجنود مختارون يقفون هنـا وهناك دون سلاح ، لا تطرف لهم عين .. وجدران ملساء من الجرانيت الرمادى الداكن ، تلمع فيها نقط صغيرة زرقاء .. وضوء أبيض شاحب لا تعرف مصدره .. وتمشى فى سرداب طويل وتهبط سلما ضيقا ، يذكرك مرة أخرى بجوف الاهرامات التى بناها الفراعنة ، وتظل سائرا فى الصمت السائد والجو البارد والضوء الشاحب والاقدام المتزاحمة ، حتى تصل الى قاعة واسعة ، فى وسطها صندوقان زجاجيان متجاوران ، ينسكب عليهما نور أحمر فى لون الشفق ..

هذا الراقد الى اليمين لينين ، فى بذلة سوداء وقميص أبيض ، قد بسط يده اليمنى الى جنبه وضم قبضة يده اليسرى الى صدره كأنه يؤكد .. والراقـد الى اليسار ستالين ، فى بذلة الماريشال العسكرية ، وقد بسط كلتا يديه على صدره ..

ان وجه لينين يبدو أكثر شحوبا وضمورا من وجه ستالين .. ووجه لينين عليه تعبير ينم عن القلق ، وجبهته باردة فيهـا تحفز

وعناد ، وحركة خفيفة عند الفم كأنها سخرية .. أما وجه ستالين فيكسوه الاطمئنان والهدوء والثبات ، والشيب الذى يتخلل شعره وشاربه قليل .. والوضع المائل الى الامام الذى وضع فيه الجسدان ، ولون الشفق المترقرق على الوجهين ، يخيل الى الناظر انهما فى اغفاءة بسيطة ، أو انهما يتهيئان للنهوض !

وقد انتهت الدورة حول الصندوقين الزجاجين ..

وها نحن نجتاز دهليز آخر ، ونصعد سلما . ونخرج من باب خلفى الى الطريق ..

ونبدأ ـ لأول مرة ـ نسترجع ما رأينا ، ونشعر بأننا لم نلتقط كل شيء !..

وعلى سور الكرملين ، خلف قبر لينين وستالين مباشرة ، رأينا عددا من اللوحات السوداء ، مثبتة فى الجدار ، فى صف طويل ، كل لوحة تحمل اسما .. انهم يتبعون تقليدا روسيا قديما ، ويدفنون تحت سور الكرملين كل أبناء الرعيل الاول الذين أقاموا دعائم الدولة الشيوعية فى روسيا . ويثبتون على الجدار لوحة باسم الميت وتاريخى ميلاده ووفاته .. وعلى هذه اللوحات قرأنا أسماء كثيرة منها : سفرولوف ، زدانوف ، كالينين ، وكان آخر اسم فى الطابور : فيشنسكى ...

بقى فى الميدان الاحمر ، عند الطرف الآخر ، مبنيان لونهما أحمر ، يقفان حول مدخل الميدان كالتوأمين .. أحدهما هو متحف الثورة والثانى متحف لينين ...

وكان الوقت فى موسكو أضيق من ان يتسع لزيارة المتحفين ، فاخترت أن أزور متحف لينين ...

فى هذا المتحف الضخم ، الذى كان فيما مضى مقر مجلس « الدوما » الروسى ، يبعث لينين أمام الزائرين حيا ..

اللوحات الزيتية المتقنة ، التى تنطوى على محاكاة جمالية كاملة للطبيعة ، تعرض لنا كل مراحل حياة لينين : فى طفولته ، فى شبابه ، عندما كان طالب ثوريا فى الجامعة ، عندما تلقى هو وأمه نبأ اعدام أخيه ، عندما أصبح محاميا شابا فى مدينة « سمارا » يؤلف الخلايا سرا ، عندما أرسل الى المنفى فى « قازان » ثم فى سيبيريا .. ثم لوحات تبين مشهد التقائه بزوجته كروبسكايا ، وليلة فراره الى جنيف ، ولحظة عودته الى روسيا أيام الثورة ، ثم حوادث الثورة التى ساهم فيها كلها ... وهكذا ، حتى لحظة وفاته ، ومشاهد جنازته ..

والى جانب هذه اللوحات الزيتية المرسومة ، جمع المتحف كل ما امكن جمعه من مخلفات لينين ، من الاشياء التى استعملها ، أو التى كانت لها ادنى صلة به خلال حياته كلها ...

وفى هذا الخضم القريب من الاشياء تجد :

* شهادته الدراسية وهو تلميذ فى المدارس الابتدائية . وكان ينال الدرجات النهائية فى أغلب المواد .
* دولاب الكتب الذى كان يستعمله وهو تلميذ .
* قائمة الطلبة الذين طردوا من الجامعة ، وكان منهم .
* العريضة التى قدمها الى وزير الثقافة لكى يسمح له بدخول الامتحان فى الجامعة بعد طرده ..
* النسخ الخاصة به من مؤلفات ماركس وانجلز ، وعليها التأشيرات والملاحظات التى كتبها فى صدر شبابه .

* النسخ الخطية لاول كتاب له وكان يحمل عنوان « من هم أصدقاء الشعب » .

* صورة أول لجنة مركزية الفها فى سان بطرسبرج (لينينجراد الآن) سنة ١٨٩٧ ، وكل أعضاء اللجنة لهم لحى كثيفة .

* مجموعة من صوره وصور زوجته فى المنفى ، وفى جنيف ، ونسخ جريدة « اسكرا » — أى الشرارة — التى كان يحررها فى جنيف ...

* المسودة التى كتبها لأول برنامج للحزب . والمسودة تطفى على سطورها سطور وظلال ودوائر ورسوم كان يصنعها بالقلم الرصاص وهو يفكر فى برنامج الحزب ...

* الموائد والرفوف التى كان يستعملها فى بيته . وكلها مزودة بأدراج سرية كان يخفى فيها كتاباته ومنشوراته .

* ساعة لينين ، وقد وقفت عقاربها عند الثانية الا خمس دقائق ، وحذاءه الاخير . وقد بان نعله وقد تمزق بعض الشىء . مفاتيحه وريشته وأقلامه ..

* الشعر المستعار الذى وضعه على رأسه عندما اختفى بعد أن أصدرت حكومة كيرنسكى أمرا بالقبض عليه ، وجواز السفر المزيف الذى كان يحمله فى تلك الايام ، باسم عامل يدعى « ايفانوف » يعمل خادما فى السكك الحديدية ..

* حجرة المكتب التى كانت له فى الكرملين من سنة ١٨ الى ١٩٢٢ ، وقد نقلت كاملة ، بالحالة التى كانت عليها وقت وفاته ، وفى صدرها لافتة تقول « ممنوع التدخين ! »

عشرات ومئات من هذه المخلفات ، تنتهى من رؤيتها بعد

ساعات طويلة ، وكأنك قد عاشرته طوال حياته ...

ولكن هذا ليس كل شيء ...

هناك أيضا شريط سينمائي ، يضم كل اللقطات التي أخذت له . وكلها بالطبع منـذ أصبح رئيسا الدولة الى أن مات . هذا الشريط يستغرق عرضه ثلث ساعة ، وهم يعرضونه في احـدى قاعات المتحف مرة كل سـاعة .. وفيه ترى لينين يأكل ويتكلم ، وهو يتمشى في الحديقـة ، أو يداعب سـكرتيره ، أو يخطب في الجماهير ، أو يسير في جنازة أحد الرفاق ..

والصورة التي كونتها من لينين ومن متحفه ، ومن شريطه السينمائي انه كان انسانا حارا عنيفا لاذعا .. فهو يتكلم في عنف ، واذا تكلم يتحرك بيديه وبجسده كله في سرعة عجيبة ، واذا ضحك فهو يضحك ضحكة فيها سخرية مريرة . بعكس شخصية ستالين ، الذي يخيل لمن يراه راقدا في صندوقه الزجاجي انه كان شخصا هادئا ، بارد الاعصاب ، يفتت بهدوءه الصخر ، دون ان يحرك أصبعا واحدا أو يتغير في ملامح وجهه شيء ...

الشارع فى موسكو

الشارع فى موسكو « الجديدة » عريض جدا .. أعرض من أى شارع آخر فى أوروبا ..

والحركة فيــه تمضى فى اتجاهين .. يتوسطهما طريق ثالث تحدده خطوط المرور البيضـــاء .. هذا الطريق الثالث مخصص لسيارات الوزراء ورجال السلك السياسى الاجنبى والاسعاف فاذا كانت السيارة تحمــل الراية الدالة على أن راكبها وزير ، أو دبلوماسى أجنبى .. استطاعت أن تمضى مسرعة فى هذا الطريق دون أن تعترضها السيارات الاخرى التى يزدحم بها الشارع فى الاتجاهين ...

والسيارات فى الشوارع كثيرة ، وحركتها نشيطة ، ولكنها ليست متعــددة الاشكال والالوان والانواع كالمنظر المألوف فى سائر العواصم .. فالناس هنا لا يشترون الا السيارات الروسية فقط .. والسيارات الروسية لا تزيد على ثلاثة أنواع : « زيم » و « زيس » و « فولجا » ، وألوانها لا تخــرج عن الاســود أو الرمادى أو البيج ..

وطراز السيارات لا يتغير كل عام ، بل يثبت على رسم واحد خلال أعوام طويلة .. انهم بذلك يوفرون جهدا وخامات تضيع فى عملية تغيير الموديلات ويقولون أن حرص شركات السيارات فى الخارج على تغيير الموديلات كل سنة سببه البحث عن الربح بواسطة ارغام المستهلك على تغيير سيارته من حين الى آخر أما فى روسيا فان هذا الدافع التجارى غير موجود انما تريد صناعة السيارات أن تزود الناس بأكبر عدد من وسائل الانتقال السريعة والمريحة فحسب ..

وبعض السيارات التى تراها فى الشارع لها ستائر مسدلةعلى نوافذها . ولما كانت روسيا لا تعرف الحجاب، ولا تضع الستائر على « الحريم » فلابد ان هذه الستائر تخفى وراءها رجالالدولة البارزين ..

لقد كان رجل الشارع فى موسكو لا يرى ستالين مثلا الا يوم استعراض الجيش الاحمر ، ولكنه الآن يستطيع أن يرى بولجانين وهو آت من بيته الريفى أو مالينكوف وهو خارج من شقته فى العمارة القريبة من الكرملين عند نهر الفولجا ، ومعنى هذا أن الستائر المسدلة على نوافذ بعض السيارات سوف تنقرض!

والشارع فى قلب موسكو ليس فيه ترام.. فوسيلةالمواصلات الاولى هى المترو تحت الارض ، ثم « الاوتوبيس » و « الترولى باس » فوق الارض .. وسيارات الاوتوبيس والترولى باس حمراء اللون ، وأكثر السائقين والمحصلين فيها من النساء ..

والمترو تحت الارض هو الاعجوبة التى عرفت بها موسكو !! هذه المدينة التى تمتد تحت الارض كلها مكيفة الهواء .. الامر

الذى لا تجده فى أى مترو آخر فى العالم وكل محطة من محطاته أشبه بقاعة ضخمة فى أحد القصور التاريخية الباهرة : الجدران والارض من المرمر ، واللوحات التى تمـلأ كل ركن ، والنقوش المذهبة ، والتماثيل ، والثريات البللورية الهائلة .

أما سيارات التاكسى فليس لهـا لون موحد مثل القاهـرة والاسكندرية ولندن و « العداد » ليس معلقا فى الخارج .. بل فى الداخل أمام السائق ، ولكنك تستطيع أن تميز سيارة التاكسى بشريط من المربعات البيضاء والسوداء على جوانبها .

والناس فى الشارع كثيرون . فموسكو يسكنها سبعة ملايين، وأغرب شيء أنهم لا يحترمون قواعد المرور أبدا فبالرغم من أن السيارات تحترم الشارات الحمراء والخضراء ، وبالرغم من جندى المرور الذى يمسك فى يده عصا رفيعة من اللونين الابيض والاسود ويلوح بها فى رشاقة المايسترو فى حركات ايقاعية جميلة ، فالناس السائرون على الاقدام لا يعترفون بقواعد المرور ، وهم يقتحمون الطريق فى أعـداد كثيفة رغم الاشـارات الحمراء ، والسيارات تخوض فى وسطهم ، وهى ممنوعة من استعمال آلات التنبيه .. فلابد لها من الحذر الشديد .. وهذا غريب فى بلد طابع كل شيء فيه هو النظام !!..

وفى هذا العـدد الكبير من العابرين ترى الرجـال والنساء والاطفال ..

الاطفال فى ثياب المدارس ــ البنت تلبس فستانا بنى اللون و « مريلة » سـوداء وربطة حمـراء ، والولد فى بذلة عسكرية وبنطلون طويل وقبعة كقبعات الجنرالات !!.. والاطفـال يدل

منظرهم على الصحة والنظافة .

أما الرجال والنساء ، فانهم يلبسون ثيابا بسيطة .. والنساء يد .ات بوجه عام ، والاصباغ على وجوه قليلة ..

ان أغلى شيء على رجل الشارع هو الثياب .. فالقماش يبدو أقل من المتوسط ، وأجرة تفصيل الفستان الواحد ٥٠٠ روبل .. فاذا كان متوسط أجر العاملة ١٣٠٠ روبل ، فمعنى هذا أن تفصيل الفستان يستهلك أكثر من ثلث المرتب الشهرى .. وتفصيل البذلة للرجل يكلف ١٠٠٠ روبل ، وثمن قماشها يكلف ٦٠٠ روبل ، أى أن ثمن البذلة يزيد على أجر شهر كامل .

ولكن الطعام كثير !!..

ورجل الشارع فى موسكو أكول الى حد بعيد . ربما لمقاومة البرد الشديد . فالخضروات والاطعمة تملأ الاسواق طول النهار .. واذا تركت الشوارع الرئيسية الى الشوارع الصغيرة .. وجدت أكواما من البطيخ والشمام على الرصيف وحولها الناس يشترون . والبطيخ والشمام أنواع كثيرة تزرعها الجمهوريات المختلفة ففيها بطيخ قلبه فى بياض الثلج وطعمه فى حلاوة الشهد .

والمتاجر الصغيرة ليست منتشرة هنا فالتوزيع يعتمد أساسا على محلات مركزية هائلة الحجم ، تجـد فى المحل الواحد منها كل شيء .

تذهب الى محلات « جوم » مثلا فى الميـدان الاحمر . انها مبان هائلة طولها طول الكرملين بالضبط . كانت تستوعب عددا كبيرا من المصالح الحكومية ، ثم حولها مالينكوف الى محل واحد كبير . تجد فيه أقساما لكل شيء ... من الثلاجات الى الاطعمـة

الى العطور الى كراريس التلاميذ .. والمحل من الداخل أشبه بمدينة ضخمة ، من ثلاثة أدوار ، وله شوارع وممرات وكبارى تربط بين مختلف الاقسام . والزحام يجعلك عرضة لأن تفقد زميلك فى داخل المحل ، وفى الوسط نافورة مياه يلتقى عندها التائهون .. فاذا افترق اثنان ذهب كل منهما بعد أن يشترى حاجياته الى النافورة ينتظر زميله !..

والروسى اذا أراد أن يرفه عن نفسه خلال هذا المشوار ... لا يشرب زجاجة كازوزة .. ولكنه يأكل شيئا !!.. يشترى تفاحا يقضمه .. أو يشترى « ماروجنا » .. وهى جيلاتى فاخرة ، يأكلها الروسى صيفا وشتاء بكثرة غريبة .. فكل خمسين مترا فى محلات جوم تجد طابورا طويلا تخرج منه النساء والرجال يلتهمون « الماروجنا » وهم سائرون بدلا من تدخين السجاير !

وأرخص الاشياء هناك هى : اسطوانات الموسيقى ، والكتب! انها تباع بأسعار أقل من تكاليف انتاجها ، والسيمفونى الكاملة التى تباع بثلاثة جنيهات يشتريها الروس بثمن قطعتين من « الماروجنا » أى بحوالى خمسة عشر قرشا مصريا ، بالنسبة لمستوى الاسعار !!.. ولذلك فالزحام فى محلات الاسطوانات شديد جدا ، كالزحام الذى تراه فى مصر عند دكاكين اللب !!..

وألحان تشايكوفسكى وبتهوفن .. ورحمانينوف يقتنيها الجميع ..

والثلاجات والسيارات بعكس الثياب ليست غالية ، ولكنها لا تكفى حاجة كل الذين يريدون شراءها .. فمن يريد أن يشترى سيارة أو ثلاجة عليه أن يقدم طلبا ، ثم ينتظر دوره، وهو لا يتسلم

السيارة أو الثلاجة عادة قبل ستة شهور ..

وأزمة المساكن فى موسكو أيضا شديدة .. ففى الضواحى يوجد كثير من الاكواخ القديمة والشوارع الضيقة والبيوت المتهدمة . وفى بعض الاماكن توجد شقق تسكن فى الشقة الواحدة منها أكثر من عائلة .. ولكن حركة البناء فى موسكو هائلة ..

والمساكن فى موسكو ليست غالية .. فالدولة بوصفها مالكة لكل المبانى السكنية تأخذ من الساكن أجرا شهريا يبلغ ٣ ٪ من من مرتبه الشهرى تقريبا ..

والمبانى القديمة فى موسكو ليست رقيقة كمثيلاتها فى باريس ، ولا زاهية كمثيلاتها فى استوكلهم .. انها أقرب الى مبانى لندن القديمة فى وقارها ، ولكنها أكثر منها تجهما ، لكأنها قد عقدت حاجبيها مكشرة !..

والبيوت الصغيرة نادرة . فالطراز السائد هو الكتل الضخمة التى تكون العمارة الواحدة منها حيا بأكمله تقريبا !

ولكن الروس يعتزون بطراز جديد للبناء اكتشفوه .. يجمع بين ملامح الطراز الروسى القديم وبين فن العمارة الحديثة ، بين الابراج المسكوفية وبين ناطحات السحاب !.. وهو طراز رائع حقا ، ولكنه فيما يبدو باهظ التكاليف فاستعماله حتى الآن قليل .. وعلى هذا الطراز بنيت جامعة موسكو الجديدة ومبنى وزارة الخارجية ، وثلاث أو أربع عمارات سكنية ..

وذوق الروس ذوق شرقى .. فهم يحبون الزخرفة الثقيلة ، وربما كانت كلمة « الدندشة » العامية أقرب الى توضيح المعنى الذى أريد !!..

واذا كان لابد من المقارنة .. فإن جو الشارع في موسكو أقرب الى الشارع فى لندن ، منـــه الى الشارع فى القــاهرة أو باريس ...

ان القاهرة مدينة فيها ضجة صوتية هائلة تجعلها تبدو فى بعض الاحيان وكأنها غابة تعوى فيها أصوات الكلاكسات . وباريس ليس فيها ضجة صوتية .. فالسيارات على كثرتها وسرعتها تمضى هادئة صامتة ، ولكن فيها ضجة أخرى فى الالوان والاشكال .. كل مقهى له لون وله طراز ، وكل سيدة فى الطريق تحاول أن يكون لها لون خاص وطابع خاص فى الثياب وفى تسريحة الشعر وربما فى طريقة السير ، وكل شاب يحاول أن يصنع تقليعة يتميز بها عن الآخرين والتأنق شىء يهتم به الجميع .. أما موسكو .. فهى مثل لندن .. ليس فيها ضجة أصوات ، ولا ألوان.. الناس متشابهون ..الذوق العام متقارب ومتجانس والارصفة خالية من المقاهى ، وجو الجد والانصراف الى العمل يكسو كل شىء ...

فأين يلهو رجل الشارع فى موسكو ؟

عند الغروب ، يستطيع رجل الشارع اذا كان شابا أن يلتقى بفتاته فى أحد الشوارع ، ثم يطارحها الهوى فى أحد الحدائق .. ويستطيع اذا كان مقامرا أن يذهب الى سباق الخيل ، وان كان سباق الخيل هناك له نظام معقد يبعده ـ قليلا ـ عن صفة القمار .. ويستطيع اذا كان رياضيا أن يذهب لمشاهدة مباراة فى كرة القـــدم .

وموسم كرة القدم فى روسيا يكون فى فصل الصيف ، ففى الشتاء يكسو الثلج الملاعب المكشوفة بحيث يصبح اللعب متعذرا ..

والمباريات تبدأ عادة عندما يقترب الليل ، حيث يضاء الملعب بالانوار الكشافة القوية فيحيله الى قطعة من النور ..

وقد رأيت مباراة فى كرة القدم بين فريق سبارتاك وفريق الجيش الاحمر .

كان ضباط الجيش الاحمر يجلسون فى وقار فى مقاعد الدرجة الاولى ، وكانت جماهير موسكو قد احتشدت فى مقاعد « الترسو » .. وكالمنظر المألوف فى مصر ، كان الترسو هومصدر الضجة والصياح ، والتشجيع والتصفير !!.. وكان فى المدرج ما يزيد على مائة الف من المتفرجين ..

أما الليل فى موسكو فلا تضيئه الكباريهات والحانات .. انما تضيئه المطاعم والمسارح ودور السينما ..

المطاعم قليلة ، أكبرها مطاعم « براجا » و « أراجفى » « أرارات » وكل منها يتميز بأطعمة احدى جمهوريات الاتحاد السوفيتى .. واذا امتلأت موائد المطعم علقت على بابه لافتة تقول « كامل العدد » وأمام اللافتة يقف طابور من الناس ، ينتظرون دورهم عند ما تخلو مائدة .. فالمطاعم أقل كثيرا من أن تلبى حاجة الناس أحيانا الى التغيير بالاكل فى مكان عام ، أو بدعوة صديقة أو صديق الى جلسة حول مائدة .

أما المسارح ، ففى موسكو ثلاثين مسرحا .. للدرام فقط !! وفيها أكثر من عشرة مسارح للكوميديا .. ومسرح للاطفال ، ومسرح للدمى ، وسيرك عالمى ، غير قاعات الموسيقى !

ان المسرح هو أبرز ما يضيىء الليل فى موسكو ! ورجل الشارع فى روسيا تجرى فى دمه الموسيقى

الكلاسيك ، ويعبد الباليه والمسرح .. وانك لتعجب اذ ترى رجلا غليظا مهوش الثياب تفوح منه رائحة البصل ، جالسا يستمع الى أنغام تشايكوفسكى فى بحيرة البجع ، كالطائر الحالم الوادع !!..

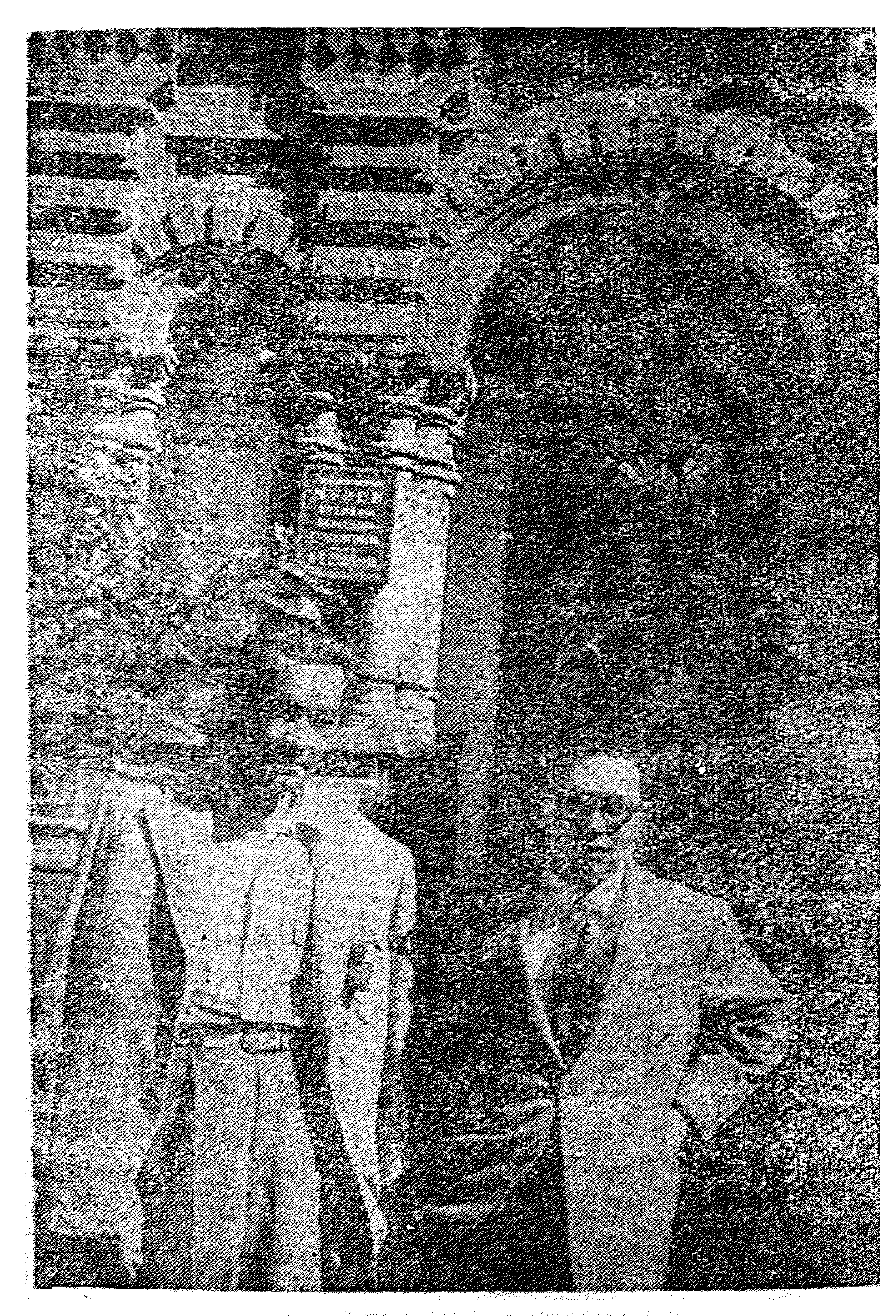
وفى بعض الفنادق توجد فى قاعات الاكل حلقة للرقص ، وفرقة موسيقية تعزف أنغام الجاز ..

ورجل الشارع فى موسكو غير متدين على الاغلب ، فهو يتفرج على الكنائس ولكنه لا يصلى فيها ، واذا مات واحد فجنازته تشيع بالموسيقى لا بالصلوات وفى المقابر ترى بعض القبور يعلوها الصليب وبعضها لا يعلوه شىء .. طبقا لعقيدة المتوفى ورغبته !!..

ورجل الشارع فى موسكو ليس من طبقة واحدة . والذين يظنون أن الناس فى روسيا يعيشون جميعا فى مستوى واحد مخطئون .. فالناس هنا أيضا طبقات ، ولكنها طبقات لا تقوم على أساس الميراث والاملاك .. انما تقوم على أساس المركز الذى يشغله كل فرد . فحظ الفنان أو الموظف الكبير من خيرات المجتمع ليس مثل حظ العامل أو المزارع مثلا ...

والشاب يستطيع أن يكون عاملا .. ويستطيع أن يدرس وهو عامل ليصبح مهندسا ، ويستطيع أن يصبح وزيرا ، أو مدير جامعة ...

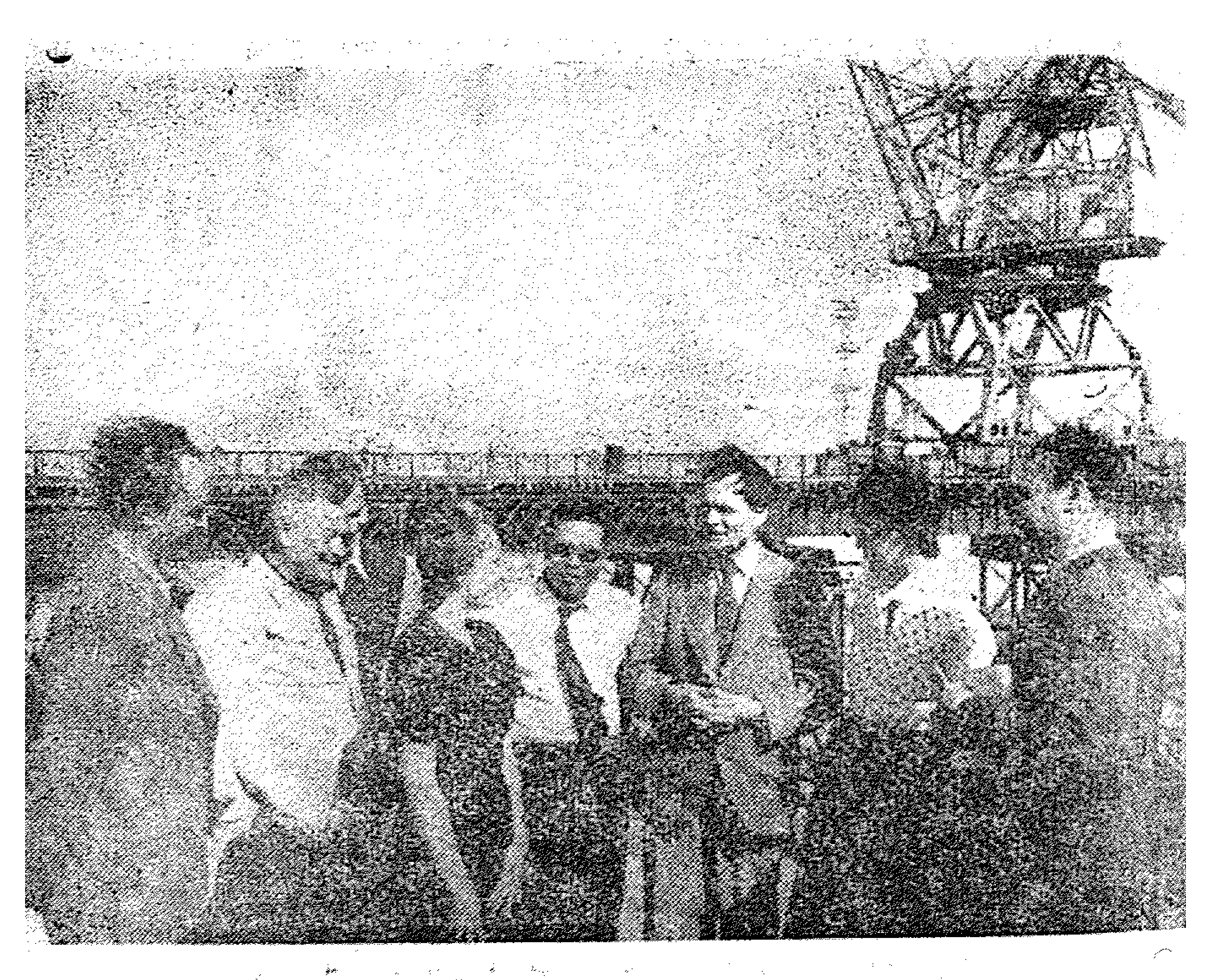
وأجر العامل فى المتوسط ١٢٠٠ روبل ، وأجر مدير الجامعة ٨٠٠٠ روبل . فاذا أصبح العامل مهندسا أو فنانا أو مديرا لمصنع .. فانه يستطيع أن يقتنى سيارة ، وأن يمتلك بيتا ريفيا ــ ويسمونه داتشا ــ وأن يسكن فى احدى العمارات الفخمة الجديدة ..



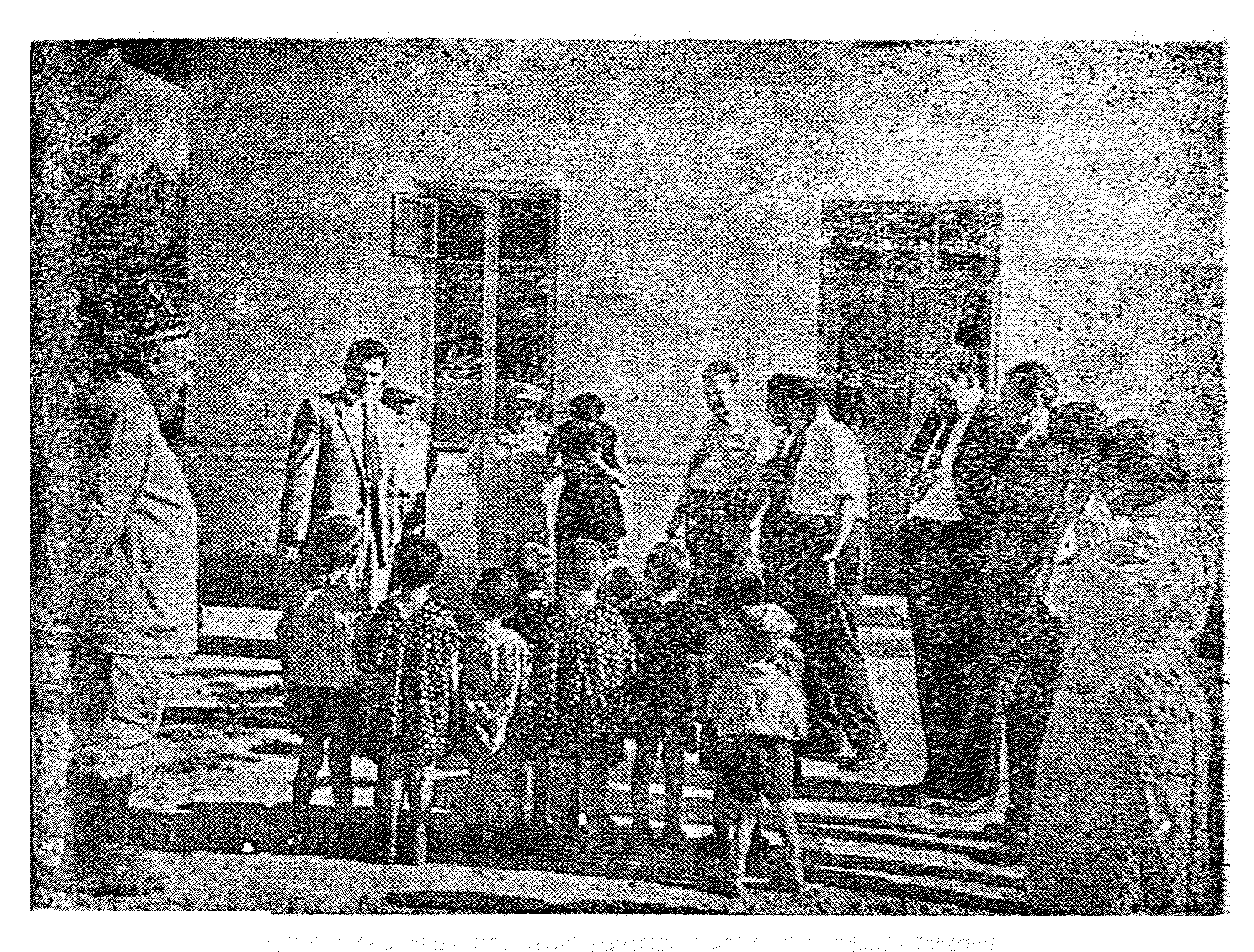
امام متحف الدفاع فى ستالينجراد
مع شكير دولت خان سبحان كولوف



مع هيلين استفانوفا فى أحد محلات كييف



عند المحطة الكهربائية الجديدة على نهر الفولجا



مدرسة حضانة فى كولخوز كاجانوفتشي باوزبكستان

من الذى يحكم روسيا ؟

ان روسيا لا تحكمها الوزارة التى يرأسها بولجانين ، ولا الجيش الذى يقوده زوكوف ، ولا الحزب الشيوعى الذى يتولى خروشتشوف منصب سكرتيره العام ..

ان روسيا تحكمها نظرية !.

واذا استكثر أحد من الناس أن تكون هناك نظرية تفوق فى قوتها قوة الحزب والوزارة والجيش ، فاننى أقول له ان هذه النظرية تصل هناك الى مرتبة الدين ، فلها ما للدين من قداسة تعلو فوق قداسة أى مخلوق ..

وليس معنى هذا ان الشيوعية دين كسائر الاديان ... فأصحابها لم يزعموا قط أنها نزلت من السماء ، ولكنى أريد أن أقول أن النظرية هناك تشبه الدين فى أول بزوغه ، من حيث قوة نفوذه ، وسيطرته على كل مظاهر الحياة ، ومن حيث أنه ينظم للانسان هناك كل أنواع العلاقات ، بل أنه يقدم له أخلاقا جديدة أيضا ..

فاذا ذكرنا كيف كان الدين فى فجر الاسلام مثلا هو مقطع كل

أمر .. لا يحتمل الخلاف حول أساسه ، انما يحتمل الخلاف فقط في تفسير أحكامه ، واذا عرفنا أن النظرية الماركسية أخذت في روسيا صورة الدين في أول عهده ، من حيث شموله وحرارته وسطوته ؛ استطعنا أن نفهم كيف أن هذه النظرية هي التي تحكم روسيا بالفعل ، هي التي تفصل بين الخطأ والصواب وهي التي تحدد مكان كل فرد من المجتمع وترسم حقه وواجبه فيه ...

و « النظرية » التي تحكم روسيا ، اشترك في وضعها — بصورتها الراهنة — أربعة من « الانبياء » : ماركس وانجلز ولينين وستالين ...

وقد كان ستالين هو الوحيد من بينهم الذي أتيح له ان يحكم روسيا أطول فترة من الزمن ؛ اذ حكم الدولة ثمانية وعشرين عاماً من ثمانية وثلاثين عاما هو عمرها كله ...

والامر الذي لا شك فيه ، والذي فهمته من مناقشاتي مع الكثيرين هناك ، هو أن ستالين كان دكتاتورا طوال مدة حكمه ، كان دكتاتورا بمعنى : ان ارادته كانت فوق كل ارادة أخرى في الاتحاد السوفييتي ...

ربما استمد ستالين قوته هذه من الظروف التاريخية التي جعلته أبرز صانعي الثورة ، أو من انه أحد الذين ساهموا في صنع هذه النظرية نفسها فأصبح هو أكبر حجة فيها ، واستمد بذلك قوته وقداسته من قوتها وقداستها .. ولكن النتيجة على أية حال هي ان ستالين كان صاحب الكلمة العليا في البلاد ..

وتسجيل هذه الحقيقة يغنينا عن تقصي نظام الحكم وأجهزته في عهد ستالين ، فقد كانت الانهار كلها على أية حال تنبع منه .

وقد قال لى كثيرون ممن تحدثت معهم ، ان ستالين حتى سنة ١٩٣٩ كان محبوبا من فريق ، ومكروها من فريق ، ولكنـه كان مهابا من الجميع ..

وكان طبيعيا ان اسأل : لماذا كان مكروها .. من فريق ؟.. فأجابنى من سألت : ان اسمه قد اقترن بكل الاجراءات العنيفـة القاسية التى اقتضتها الثورة ، ثم اقتضاها وضع النظرية موضع التطبيق . فقد اقترن اسمه باعدام عدد كبير من ابرز زعماء الثورة نفسها مثل زينوفيف وكامينيف وبوخارين ، وبالمحاكمات الدامية وحركات التطهير الواسعة التى قضى فيها على الذين كانوا يعارضونه من اليسار ومن اليمين على السواء ، والمعتقلات التى فغرت فاها لتتلقى الآلاف ، ثم بالمذابح التى صاحبت تحويل الملكية الفردية فى الريف الى ملكية جماعيه ...

واخترت شيوعيا متحمسا ، ممن كنا نحتك بهم طوال الرحلة ، لكى اناقشه فى هذه النقطة ...

قال لى : ان كل ثورة لها الدكتاتور ، أو الدكتاتورية ، التى تضع مبادئها موضع التطبيق . لو كان التطور والتغيير يتم سلميا وبالاقناع لما كان هناك داع لاى ثورة . ولكن الامر الواقع فى تاريخ كل البلاد ان كثـيرا من التغيرات التقدمية تمت بطريقـة الثورة ...

والثورة معناها عمل عنيف يستهدف تحطيم كيان قـديم ، يدافع عن نفسه بالعنف أيضا ...

لقد عرفت الثورة الانجليزية دكتاتورية كرومويل ، وعرفت الثورة الفرنسية دكتاتورية اليعاقبة ، والثورة الامريكية دكتاتورية

جورج واشنجطون ، وكل ثورة من هذه الثورات ، أو كل دكتاتورية من هذه الدكتاتوريات ، كانت تضطر الى انكار حق الحرية على القليلين الذين قامت الثورة ضدهم ، من أجل الكثيرين الذين قامت الثورة لحسابهم ...

ان ما صنعه ستالين ليس جديدا فى تاريخ العالم ، انه قديم تستطيع أن تجده فى تاريخ أى ثورة ...

وكأن هذا الرفيق الذى سألته أراد ان يدعم دفاعه ، فقدم لى كتيبا صغيرا مطبوعا فى انجلترا ، عن النص الرسمى للحوار الذى دار بين ستالين وبين الكاتب الانجليزى هـ ج. ويلز ، عندما زاره هذا الاخير فى الكرملين سنة ١٩٣٥، وتعقيب على هذا الحوار بقلم جورج برنارد شو ...

لقد دار الحديث بين هـ. ج. ويلز وستالين حول هذه النقطة بالضبط . كان ويلز يرى ان التطور البرلمانى العادى كفيل بان يحقق أى تغيير اجتماعى أساسى ، وكان ستالين على العكس من ذلك يرى ان النظم القديمة فى العادة لا تسلم معاقلها للنظم الجديدة فى هدوء ...

ولست اذكر ما قاله ستالين بحروفه . وأنا الآن اكتب من الذاكرة فحسب . ولكنى اذكر ان ستالين قال ما معناه : ان النظم القديمة تدافع عن كيانها بكل الوسائل .. بالحرب والقوة المسلحة بالسجون وبالمؤامرة والاغتيالات ... فكيف تريد من النظم الجديدة ان يقابلوا هذا كله ؟.. هل يقابلوه بالكلمات الجميلة فحسب .. أم بنفس السلاح العنيف ؟...

وأذكر أيضا أنه قال ما معناه : ان الرجعية فى دفاعها عن نفسها

يحمل السلاح قبل ان يحمله التقدميون الذين يطالبون بالتغيير .. واذا حمل خصمك السلاح فلا بد لك أن تحمله !..

على أية حال ، فقد كان لا بد لستالين ان يتحمل كراهية الكثيرين له ، وحقدهم عليه، ما دام قد صمم على ان يمضى بفلسفته مهما كان الثمن ...

ولكن ستالين خرج من الحرب الاخيرة محاطا بهالة ضخمة من التقدير ، اذ اقترن اسمه أولا وقبل كل شيء بالنصر العسكرى ، وبكل الانتصارات التى احرزتها روسيا فى ميدان السياسة العالمية منذ نهاية الحرب ، وبالمكانة الدولية الهائلة التى قفزت اليها روسيا خلال فترة قصيرة ...

وقد سألت فتاة روسية مثقفة ، ماذا كان شعورها عندما سمعت لاول مرة نبأ وفاة ستالين ؟..

وقالت الفتاة : لقد بكيت ، ومرت بى فترة من الذهول . فقد نشأنا جميعا لنجد ستالين يصنع كل شيء : كان لا يقول شيئا الا ويحققه ، وفى موعده ، كأن ارادته قدر لا يقبل التغيير أو التأجيل ...

كان يقرر تحويل الزراعة الى نظام المزارع الجماعية فتتحول مهما كان الثمن . كان يعلن ان الانتاج سيزيد فى مدة كذا بمقدار كذا فتتحقق الزيادة . كان يؤكد اقتراب النصر والالمان يقتربون من موسكو ، فيتحول التيار ويتحقق النصر .. فأصبحنا نظن أنه شخص خارق خارج على نواميس الطبيعة ، لا يموت !!

وقد ساعدت الدعاية المركزة على شخص ستالين فى خلق هذه الصورة الآلهية له ! فأنت فى موسكو أو فى غيرها من مختلف بلاد

الاتحاد السوفيتي ، لا تجد شارعا أو مبنى أو مصنعا أو مدرسة تخلو من صورة لستالين أو من تمثال له•• حتى فى بيوت الحضانة للاطفال الصغار ، تجد صورة ستالين معلقة فى كل حجرة ، قريبة من الارض ، بحيث يراها الاطفال الذين لم يبلغوا ثلاث سنوات من العمر بعد ، أو تجد تمثالا له وهو يحمل طفلا صغيرا فى هذا الركن أو ذاك !••

دعاية ضخمة لا أظن زعيما أو حاكما تمتع بها قط •

لقد زرت فى الاتحاد السوفيتي ست مصانع، خمسة منها كانت تحمل اسم ستالين ! وفى مباراة كرةالقدم التى شهدتها كانت صورة ستالين فى حجم هائل تشرف على الملعب كله ! وفى مصيف هادىء مثل (سوتشى) كنت أجد تمثال ستالين فى اصغر الحدائق وأخفى الخمائل ينصت الى تنهدات العشاق !••

وعند مدخل قناة (الفولجا دون) كان هناك تمثال ضخم جدا لستالين ، قطر القبعة التى يحملها فى يده متر وعشرين سنتيمتر !••

وقد صنعت هذه اللوحات والتماثيل كلها قبل ان يموت ستالين !

وقد خيل الى ان ستالين كان هو الموضوع الرئيسى لانتاج الفنانين فى الرسم والنحت خلال حقبة طويلة من الزمن !

ولينين يشارك ستالين فى كثير من الصور والتماثيل والاسماء ولكنه لا يساويه •••

ان ستالين فى نظر الروسى العادى انسان خارق للعادة •• ومن أجل ذلك يقول لك : ان ستالين لا يمكن ان يتكرر ، ومن أجل

ذلك فان النظام بعد ستالين يجب ان يتغير ..

فهل يتغير النظام حقا ؟..

والى أى اتجاه ؟..

اعتقد ان الشعور بالحاجة الى التغيير قد بدأ قبل ان يموت ستالين ، ربما منذ نهاية الحرب الاخيرة ..

لقد اسفرت الحرب عن تغيرات كثيرة وخطيرة بالنسبة للاتحاد السوفيتى ..

لم تعد روسيا هى الدولة التى ذاقت الهزيمة فى الحرب العالمية الاولى واضطرت (لكى تنجو بكيانها وتقيم نظامها الجديد) الى ان توقع صلحا جائرا مع المانيا .. ولكنها أصبحت الدولة التى قامت بدور اساسى فى النصر ..

ولم تعد روسيا هى الدولة التى كانت معزولة عزلا تاما عن كل مشاكل العالم الخارجى . بل أصبحت احدى الدول الكبرى التى ترسم خريطة العالم وتوجه مصائره . وأصبح لها صوت مسموع فى كل مشكلة ...

ولم تعد روسيا ـ أخيرا ـ دولة وحيدة تحيطها الكراهية والتربص من كل جهة . لقد أصبح لها معسكر وحلفاء أقوياء فى آسيا وفى اوروبا على السواء ...

وفى الداخل استقر النظام ، وتأكد استقراره فى الامتحان العنيف الذى دخله خلال الحرب ...

والعلامات التى تدل على نمو هذا الشعور بالحاجة الى التغير كثيرة ...

فقد دارت مناقشات كثيرة ، تناولت مستقبل السياسة الداخلية

والخارجية على السؤال ...

دارت ــ مثلا ــ المناقشــة التى اشرت اليها بشأن تحويــل المزارع الجماعية الى النظام الشــيوعى ، والتى حسمها ستالين بمعارضة الانتقال من النظام الاشتراكى الى النظام الشــيوعى ، مشترطا لهــذا الانتقال شروطا كثيرة لم تتوافــر فى الاقتصــاد السوفيتى بعد ...

ودارت مناقشة أخرى هامة ، عندما خرج « يوجين فارجا » اكبر علماء الاقتصاد فى روسيا ، ومدير معهد العلوم الاقتصادية فى موسكو ، عند ما خرج برأى خطير نقد فيه نظرية اساسية من نظريات لينين ، وهى الخاصة بحتمية وقوع الحرب بين الــدول الرأسمالية ...

قال فارجا : ان هذه النظرية لم تعد صــالحة للانطباق على الظروف التى تلت الحرب العالمية الثانية .. وذلك لاسباب كثيرة هى :

أولا ــ ان الحكومات فى الدول الرأســمالية لم تعد تترك الشركات حرة تنتج كما تشاء ، أى لم تعد تترك الاقتصاد حــرا بالمعنى التقليدى للاقتصاد الحر ، بل لقد أصبحت الحكومــات الرأسمالية تتدخل فى الحياة الاقتصادية بحيث تستطيع ان تتلافى الأزمات الدورية التى تقع فى ظل النظام الرأســمالى . فالحرية الاقتصادية فى البلاد الرأسمالية لم تعد حرية مطلقة .

ثانيا ــ ان قيام حرب بين دولتين أو بين جبهتين يستلزم وجود درجة من التقارب بين القوتين بحيث تأمل كل قــوة فى النصر . ولكن الوضع الراهن بين دول المعسكر الرأسمالى هو ان امريكا

متفوقة تفوقا ساحقا ــ اقتصــاديا وعسكريا ــ على ســائر دول المعسكر الرأسمالى بحيث أنه من المستحيل ان تفكر احدى هذه الدول فى دخول حرب ضد امريكا ، لان خسارتها محتمة ...

ثالثا ــ ان الثورات الوطنية فى شمال افريقيا وفى فيتنام وغيرها ما زالت توحد بين الدول الرأسمالية فى معسكر واحد وتجعلهــا تتناسى الخلاف بين مصالحها ازاء الخطر الذى يهددها جميعا ..

رابعا ــ ان تجارب الحربين السابقتين وما أســفرت عنه كل منهما من ظهور أول دولة شــيوعية بعد الحرب الاولى ، وازدياد معسكرها قوة بعد الحرب الثانية ، لا تشــجع الدول الرأسمالية على اشعال حرب ثالثة فيما بينها ..

خامسا ــ ان هذه الدول الرأسمالية مهما تناقضت مصالحها فلا يمكن أن تشتبك فى حرب وتتناسى وجود المعســكر الضخم الذى تتزعمه روسيا ، والذى يهدد النظام الرأسمالى كله بالخطر .

وقد ثارت مناقشات عنيفة حول هذا النقد الجرىء لاحدى نظريات لينين الاساسية ، وحســم المناقشات مرة أخرى تدخــل ستالين بنشره مقاله الشهير الذى قال فيه أن نظرية لينين ما زالت صالحة للبقاء ، وأكد أن احتمال وقوع حرب بين الدول الرأسمالية أقرب من احتمال وقوعها بينها وبين روسيا ، وقال : ان الظروف التى تحدث عنها (فارجا) كانت قائمة كلها قبل الحرب العالميــة الثانية، ومع ذلك فقد بدأت هذه الحرب بين معسكرين رأسماليين: ألمانيا من جهة وانجلترا وفرنسا من جهة أخرى ..

ولا أريد أن استطرد فى سرد هذه المناقشات ، رغم أهميتها البالغة، فهى ليست الموضوع الاساسى لهذا الكتاب، انما أردت فقط

أن أوضح (الجو) العام الذى كان يجيش بالرغبة فى التغيير وفى مناقشة كثير من الامور بعد أن استقر الحكم الشيوعى أكثر من ثلاثين سنة ...

ومن علامات هذه الرغبة فى التغيير ـ فى رأيى ـ انعقاد المؤتمر العام للحزب الشيوعى بعد ان تعطل سنوات طويلة انفرد فيها ستالين واللجنة المركزية بتوجيه دفة الحكم ...

▣

فى هذا الجو مات ستالين ..

وكان موت ستالين حادثا هاما بغير شك .. فقد ذهبت الارادة التى كانت تحسم فى النهاية كل أمر .. وأصبح الاحساس عاما بالحاجة الى مناقشات واسعة قبل أن تستقر الاوضاع الجديدة سواء فى نظام الحكم نفسه، أو فى السياسة الخارجية أو الداخلية.

فأين تجرى هذه المناقشات ؟..

وما هى السلطة التى ترسم للدولة فلسفتها وسياستها ؟..

لقد قلت فى أول هذا الفصل أن روسيا تحكمها نظرية ..

أما الجهة التى تقوم بدور حراسة هذه النظرية ، ورعايتها وتطويرها ، والدعوة اليها فهى : الحزب الشيوعى ..

والحزب الشيوعى ليس جهازا منصوصا عليه فى الدستور ، ولكنه السلطة العليا فى البلاد ...

هو السلطة العليا .. لانه هو الذى يرعى النظرية .. ويرسم السياسة العامة فى جميع المسائل .. سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ، ثم يترك تطبيقها ووضع تفاصيلها للحكومة تحت اشرافه

والوزراء أعضاء فى الحزب .. فهم مسئولون أمام جمعيته العمومية، ولجنته المركزية ...

وفى حياة ستالين .. كان هذا الفارق بين الحكومة والحزب شاحبا .. اذ كان ستالين يجمع بين المركز الاول فى الاثنين :

كان رئيسا للوزارة وسكرتيرا أولا للحزب. وكان مالينكوف هو السكرتير الثانى، وخرشتشوف هو السكرتير الثالث ...

ولما مات ستالين .. افترق المنصبان لاول مرة .. فأصبح مالينكوف ـ ثم بولجانين ـ رئيسا للوزارة وخرشتشوف سكرتيرا للحزب ...

فى الحزب اذا تجرى الآن هذه المناقشات الهامة التى ترسم سياسة الاتحاد السوفيتى الجديدة فى كل الميادين ...

والمناقشات هناك لا تجرى علنا .. ولا تنشر على الناس، انما هى تدور بين جدران الحزب فقط .. وهى فى العادة مناقشات عنيفة تستمر شهورا طويلة .. اما ما ينشر على الناس .. فهو السياسة التى يستقر عليها الرأى فحسب ...

والقطع بلون المناقشات وموضوعاتها أمر صعب للغاية بسبب الكتمان المضروب حولها، ولكن كثيرا من الظواهر تساعد على تكوين فكرة عامة عن هذه المناقشات ...

وقد وقعت عدة حوادث ضخمة منذ وفاة ستالين، تدل فى ذاتها على موضوع هذه المناقشات، وعلى نوع التغيير الذى جرى هناك، وهى :

اعدام بيريا ..

استقالة مالينكوف ..

الصلح مع تيتو ..

اعتذار مولوتوف ..

ولا أريد أن أعرض لهذه الحوادث التى لفتت أنظار العالم بالتفصيل .. فالقطع بحقيقة التفاصيل .. لا يخلو من المخاطرة بالوقوع فى الخطأ ، لقلة المعلومات التى تنشر عن هذه الاحداث ولان الذى يهمنى أن أوضحه فى هذا الشأن هو دلالتها على الجو العام الذى أحسست به هناك ...

فالمسألة الاولى التى كانت بغير شك محل مناقشات طويلة هى مسألة نظام الحكم فى الظروف الجديدة التى نشأت بوفاة ستالين، وبانفصال السلطة التنفيذية لاول مرة عن الحزب ...

ومن أبرز ما تغير فى نظام الحكم .. البوليس السرى .. وسلطاته .. والسياسة التى توجهه .. فقد كان هذا النظام محل نقد الكثيرين من أصدقاء روسيا أنفسهم .. كالأسقف الاحمر :

وأغلب الظن أن هذا الرأى قد لقى تأييدا فى الحزب ، ومن دلائل ذلك ما صنعه مالينكوف من الافراج عن المعتقلين والمحكوم عليهم فى قضايا سياسية .. وأغلب الظن أيضا أن هذا الاتجاه قد اصطدم برجل البوليس السرى : بيريا .

وبيريا هو الاسم الذى اقترن بكل الاجراءات البوليسية التى لا تجد ترحيبا من أى شعب بوجه عام .. وبيريا له خطر آخر هو أنه الوحيد بين كبار رجال الدولة والحزب الذى يسيطر على قوة مسلحة بحكم وضعه كوزير للداخلية، ولعله فكر فى الاستيلاء على السلطة ، أو حاول التمهيد لذلك ، فسبقه مالينكوف وخروشتشوف والآخرون الى العمل وجاءوا به الى اللجنة المركزية

للحزب حيث حاكموه سياسيا ، ثم خرج مقبوضا عليه ، الى حيث تمت محاكمته واعدامه سرا ...

هذا هو التفسير الذى أرجحه فى حادث اعدام بيريا . وهو تفسير شاركنى فيه كل من تحدثت معه . لان أحدا هناك لا يكاد يصدق أن بيريا بكل تاريخه ومكانته عند ستالين، يمكن ان يكون خائنا ، بالمعنى الذى قيل عنه رسميا ، أى بمعنى اتصاله بالمعسكر الرأسمالى ، منذ سنوات بعيدة !

ارجح هذا التفسير ، واربطه بالتغير السياسى هناك : فبيريا رأى ان يستمر النظام الدكتاتورى الذى كان سائدا أيام ستالين. ولعله نظر الى السلطة الموجودة فى يده فداعبه حلم هو ان يكون خليفة ستالين ، بكل سلطاته .. ورأى الآخرون عكس ذلك ...

وأنا التزم فى هذا الكتاب أن اغلب «المشاهدة» والمناقشة على البحث فى بطون الكتب . ولا اريد ان أغوص بعيدا فى دراسات تبعد بى عن جو « الرحلة » و « المشاهدة » .. ولكنى فى هذه النقطة الهامة ، لا أجد بأسا من الرجوع الى كتاب (روسيا بعد ستالين) الذى كتبه (هاريسون سالسبورى) مراسل النيويورك تيمز الامريكية فى موسكو ...

لقد عاش سالسبورى ثلاث سنوات فى موسكو . وشهد خلالها فترة وفاة ستالين وما أعقبها ...

وقد كتب سالسبورى وصفا دقيقا لموسكو يوم وفاة ستالين، وصفا له دلالة فى قضية بيريا هذه ، انقله فيما يأتى :

قال سالسبورى :

«حتى الساعة الخامسة صباحا ، لم يكن ثمة أى شىء غير

عادى فى قلب المدينة (موسكو) • الحركة فى الشوارع عادية ، والبوليس العادى ساهر عند شارات المرور وحول اركان الكرملين • كانت احدى ليالى مارس الباردة ، ليست اكثر برودة من المعتاد فى موسكو • وعند الفجر كان الثلج كله قد أزيح كالعادة من الشوارع •

ولكن الآن، وعندما اعلنت العقارب الذهبية الفخمة فى الساحة الموجودة فى برج سباسكى السادسة ، بدأ التغير يظهر • لقد بدأت تتدفق على المدينة من كل مكان اسراب من سيارات اللورى •• من شارع جوركى العريض ، ومن تلال لوبيانكا ، وعبر الكوبرى الحجرى الضخم فوق نهر الموسكوفا • من جميع الاطراف كانت اسراب سيارات اللورى تتدفق على الميادين الرئيسية فى المدينة •

وعلى مقاعد هذه اللوريات الخضراء ، كان جنود البوليس السرى ، فى ملابسهم ذات اللونين الازرق والاحمر ، يجلسون كل ٢٢ فى سيارة • انها القوات الخاصة بوزارة الامن الداخلى• آتية من معسكراتها التى تقع قريبا من ضواحى موسكو • وظلت السيارات تتدفق بكثرة وتخترق شوارع المدينة ، حتى خيل الى أول الامر اننى ازاء « انقلاب » • فلما بدأت هذه القوات تأخذ مراكزها ، اتضحت الحقيقة لى •

ان ما أراه هو حركة من أذكى الحركات العسكرية التى رأيتها فى حياتى ، ومن اخطرها أيضا • ففى دقة عقارب الساعة ، بدأت قوات الامن الداخلى تأخذ أماكنها فى جميع الشوارع الرئيسية المؤدية الى قلب المدينة ، أما السيارات التابعة لها فقد كانت تقف بحيث تسد مداخل كل الشوارع الجانبية ، وفى حلقات متتابعة ،

كأنها متاريس تحكم اغلاق منافذ هذه الشوارع الجانبية تماما .
وعندما عدت فى الساعة التاسعة صباحا الى شارع جوركى ، بعد ان ارسلنا برقياتنا الى الخارج بنبأ وفاة ستالين ، وجدت تغيرا آخر ، فالى جانب قوات الامن المعسكرة عند النواصى بحيث تسيطر على الطرق كلها ، ظهرت طوابير من الدبابات . وكنت اسمع صوت دبابات أخرى تزحف فى الشوارع القريبة متجهة الى قلب المدينة أيضا . كانت كل القوات والسيارات والدبابات تابعة لوزارة الامن الداخلى . لم تكن هناك كتيبة واحدة تابعة لقوات الجيش النظامى .

واعترف بأن هذا كله لم يلفت نظرى أول الامر . وربما لاننى كثيرا ما رأيت قوات الامن الداخلى تملأ الشوارع فى خلال أيام الاحتفال ، كيوم أول مايو ويوم ٧ نوفمبر . وربما لاننى كثيرا ما رأيت المعسكرات الضخمة التى تقيم فيها هذه القوات ، على طول الطرق الزراعية المحيطة بموسكو . ولم أجد غرابة فى أن تظهر قوات الامن الداخلى فى هذه المناسبة الخاصة ، فمهمتها على اية حال هى المحافظة على الامن والنظام ، خلال الساعات التى سوف يتم فيها نقل جثمان ستالين .

وبالرغم من انقلة عدد السيارات والاوتوبيسات جعلتنى ادرك أن بعض الطرق قد اغلقت بالفعل ، الا انه كان ما يزال ممكنا ان ادخل الميدان الاحمر ، وان اسير فيه لارى ما هنالك . كان هناك حوالى الفين من الناس ، قد تجمهروا عند بوابة سباسكى ، فى انتظار خروج جثمان ستالين . كانت هذه أول مرة أرى فيها تجمهرا ما فى موسكو . وفى وسط الزحام رأيت كثيرين من

الشبان الذين يعملون فى السفارة الامريكية .

وبعد قليل دخلت بعض قوات الامن الداخلى الميدان الاحمر . اغلقت الميدان أول الامر حتى لا يدخل مزيد من الناس ، ثم بدأت تجلى الناس المتجمهرين تدريجيا، وتدفعهم من حول بوابة سباسكي الي مدخل الميدان من ناحية متحف الثورة .

كان واضحا ان قوات الامن لا تريد ان تخلى الميدان الاحمر وحده ، بل والميادين المتصـلة به أيضا ـ ميدان مانزيتى وميدان الاوبرا ـ أى تخلى قلب موسكو باكمله . وقد اكتشفت بعـد ذلك ان قوات الامن الداخلى قد عزلت مدينة موسكو كلها أيضا . فبواسطة صفوف اللوريات والدبابات ، وحلقات الجنـود الذين يقفون كتفا الى كتف ، اغلقت هذه القوات مداخل موسكو كلها ، وامتنع أى دخول أو خروج منها أو اليها ...

وفى الساعة العاشرة من صباح ٦ مارس ١٩٥٣ ، لم يكن أى مخلوق يستطيع ان يدخل أو يخرج من موسكو الا باذن خاص من وزارة الامن الداخلى .

وفى هذه الاثناء كنت قد خرجت مع الناس من الميدان الاحمر . ولم اجد ما استطيع ان افعله فى الشـارع ، فعدت الى فنـدق متروبول ، واتخذت مركزا للمراقبة فى حجرة القائم بأعمال مفوضية المكسيك ، وهى فى الدور الثالث ، ولها نافـذة كبيرة تطل على الميدان ، ومن النافذة راقبت عملية اجلاء الناس من قلب موسكو .

وعندما خلت هذه الميادين من الحركة ، خيم على المدينة صمت غريب . كان النشاط الوحيد ينحصر امام بهو الاعمـدة ، الذى كان فيما مضى ناديا للنبلاء ، وكنت اراه عند الميدان ، عند ناصية

شارع بوشكين . كان العمال عند مبنى بهو الاعمدة ينصبون الرايات والازهار ، ويعلقون صورة ضخمة جدا لستالين ، تغطى طابقين من المبنى .

وظهرت فى الميدان سيارة نقل عادية زرقاء اللون ، خلفها ثلاث سيارات زيس سوداء ، جاءت من الميدان الاحمر . ووقفت سيارة النقل امام الباب ، وتقدم عدد من الجنود واخرجوا منها تابوتا ، لا شك يضم جثة جوزيف ستالين ، ودخلوا به الى المبنى، لكى يرقد فى نفس المكان الذى رقد فيه لينين من قبل ، ثم لكى يمر الناس من أمامه محيين .

وبدأت سيارات الليموزين تتدفق على مبنى بهو الاعمدة . كان واضحا أن كبار رجال الدولة قد جاءوا لتحية ستالين .

وسمعت اشاعة تقول ان قطارات محملة بمئات الآلاف من الناس وصلت الى موسكو . وان الناس يتدفقون من كل مكان لرؤية ستالين بعد موته . ونزلت الى الطريق لاتأكد من ذلك . وحاولت الوصول الى محطات السكة الحديد ...

ان الحصار المضروب على المدينة اكثف مما أحسب . قوات الامن فى حلقات متتالية من قلب المدينة حتى اطرافها ، تعزل المدينة تماما ، من الداخل ومن الخارج ...

وعندما عدت الى الميدان الاحمر ، فى صمته المخيم ، وبعد أن رأيت هذه القوات الضخمة ، بدأت الفكرة تدق رأسى لاول مرة.

أى قوات هذه التى تسيطر على المدينة ؟ قوات الامن . هل هناك أى قوات أخرى فى المدينة ؟ كلا . هل تستطيع أى قوات أخرى ان تدخل المدينة ؟ كلا ، الا باذن خاص من قوات الامن ،

أو بان تقاتل هذه القوات شارعا شارعا ومتراسا وراء متراس ..
والقوات الجوية ؟ لن تنفع . انها ستدمر المدينة كلها، وتبقى قوات الامن مسيطرة على كل طريق وكل نقطة استراتيجية فيها .

وماذا عن الكرملين ؟ الذين يجلسون فيه الآن جاءوا باذن من قوات الامن . وهم لا يستطيعون الخروج الا باذن منها . انهم فى الواقع اسرى هذه القوات ، سواء كانوا يعرفون ذلك الآن أم لا يعرفوه ، ورجـــال مثل رجال الكرملين بخبرتهم فى الثـورات والانقلابات والحرب الاهلية لا يمكن انيكونوا غير ملمين بعناصر الموقف وحقيقته . لقـد كانت الحقيقة واضحة ، قوية ، تفرض نفسها فرضا .

ان قوات الامن ليست فرعا من الحكومة. انها فرد ، انها رجل قوى قاس ذو قدرة خارقة ، اسمه لافرنتى بافلوفتش بيريا . ولقد كانت قوات بيريا ، وسيارات بيريا ودبابات بيريا هى التى قامت بهذه المناورات العسكرية العجيبة واستولت على مدينة موسكو فى نفس الوقت الذى كان فيه راديو موسكو يعلن نبأ وفاةستالين على المواطنين المذهولين ...

لقد وضع بيريا يده على موسكو ، فى دقة الساعة ونعومتها .

واذا استولى بيريا على موسكو فقد استولى ، فى واقع الامر، على روسيا كلها .

فمنذ فجر ٦ مارس حتى عصر ٩ مارس كان بيريا هو سيد روسيا وحاكمها . كان هو الاعلى . لم يكن هناك أى فرد آخـر يجسر على تحـديه . لا مالينكـوف ، ولا خروشتشوف ، ولا مولوتوف، ولا الجيش نفسه !

كان بيريا يستطيع فى خلال الخمسة وسبعين ساعة التى حكم فيها ان يعلن نفسه دكتاتورا وخليفة لستالين • ولكنه لم يوجه ضربته فى هذه اللحظة بالذات • وبتأجيلها حدد مصيره • ان الحياة التى انتهت بالاعدام ليلة عيد الميلاد سنة ١٩٥٣ ، فى لوبيانكا ، قد تقرر مصيرها منذ تلك الايام فى مارس عندما فشل بيريا فى استخدام سلطته •

لقد كان « استعراض القوة » الذى نفذه بيريا ناعما ، بارعا ، كاملا الى درجة ان أى شخص لمح ذلك لا يمكن ان يلتقط انفاسه فى هدوء الا اذا وثق فى بيريا تماما ، أو خضع لسلطته المطلقة •

وفى اليوم التالى ، عندما رقد ستالين بجوار لينين ، تكلم بيريا فى الميدان الاحمر جنبا الى جنب مع مالينكوف ومولوتوف • وعندما وقفت تحت شمس مارس الشاحبة استمع الى بيريا ، خيل الى ان ثمة تيارا خفيا فى خطبته ، ينبع من ثقته المطلقة فى قوته • وفى تلك الليلة ارسلت فى برقيتى الى النيويورك تايمز أقول : (كانت نبرات مستر بيريا بالذات تنم عن ثقة ملحوظة) •

ثم يضيف سالسبورى ، موضحا أهمية بيريا ، فيقول : (ان البوليس كان أقوى جهاز فردى فى الدولة كلها • كانت جذوره تمتد فى جميع فروع الدولة والحزب والجيش على السواء • والاهم من ذلك ، ان بيريا كان هو المسئول عن الابحاث الذرية والانتاج الذرى فى روسيا • كان هو الرجل الذى اشرف على ادارة القنبلة الذرية ، وهو الذى ادار الجهود التى أدت بعدالقبض عليه بقليل الى تفجير القنبلة الهيدروجينية •••

انتهى كلام سالسبورى ••

وهو يؤكد ما اذهب اليه من تفسير اعـدام بيريا ، ومن ان اعدامه كان علامة من علامات التغير .

انهم اليوم يقولون فى روسيا : ان بيريا كان الاذن التى يسمع بها ستالين والعين التى يرى بها الموقف ... وان بيريا كان هـو المسئول عن سياسة التجسس والارتياب والاغـلاق والاحساس بالخطر لانه كان يوحى بها الى ستالين ...

ومن الغريب ان بيريا هو ثالث رجل فى الاتحاد السـوفيتى يتولى منصب وزير الداخلية ورئيس البوليس السرى ، وينتهى هذه النهاية !

كان الاول هو « مينزنسكى » ، وقد تولى هذا المنصب منذ سنة ١٩٢٦ حتى سـنة ١٩٣٤ ، وفى تلك السـنة مات فى ظروف غريبة ، واعلن بعد ذلك أنه قد مات اغتيالا ...

وفى سنة ١٩٣٤ خلفه (ياجودا) . واشرف (ياجودا) بحكم وظيفته على اكبر حركة تطهير ومحاكمات تمت فى روسيا ، وهى المحاكمات التى اعدم فيها (باكاييف) و (بوخارين) وايفدوكيموف وكامنيف وكاراخان و «روزنجولتز» وريكوف وزينوفيف ... ولما جاءت سنة ١٩٣٦ ، قبض على ياجودا نفسه ، وحوكم بتهمـة الاشتراك فى قتل سلفه فى رئاسة البوليس السرى وآخرين من كبار رجال الدولة هناك ، وحكم عليه بالاعدام !..

وكان بيريا هو الثالث !!.

*

المسألة الثانية التى كانت محل مناقشات طويلة فى الحزب .. هى السياسة الخارجية ...

وواضح أن الاتحاد السوفيتى قد اتجه سياسة خارجية جديدة فى نواح كثيرة ، وأن الحزب هو راسم هذه السياسة .. بدليل أن خروشتشوف سكرتير عام الحزب ــ وهو ليس عضوا فى الوزارة ــ هو الذى ينفذها بنفسه ويحمل مسئوليتها علنا أمام العالم كله .

وأضرب ــ فى ميدان السياسة الخارجية ــ مثلا بحكاية تيتو ويوغوسلافيا .

لقد كانت الخطوة التى أقدمت عليها روسيا بذهاب بولجانين وخروشتشوف الى تيتو ، واعتذارهما له علنا عما سبق أن وجه اليه من اتهامات . كانت خطوة جريئة غير منتظرة من أحد ...

وقد لوحظ فى هذه المناسبة أن مولوتوف ، وهو وزير الخارجية المسئول لم يذهب فى هذه الزيارة ، وان هذه الزيارة هى العمل الكبير الذى لم يشارك فيه مولوتوف .. فهل معنى ذلك ان مولوتوف لم يكن موافقا على هذه الخطوة ؟.. وان هذه الخطوة بناء على ذلك كانت محل خلاف فى الحزب ؟..

الجواب فيما أعتقد : نعم ...

فقبل ذلك بشهور قليلة القى مولوتوف خطابا عن السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى قال فيه : أن روسيا بذلت جهدها لتحسين علاقاتها بيوغوسلافيا ، وأن على يوغوسلافيا أن تخطو الخطوة التالية . ومعنى هذا أن مولوتوف كان يرى ان يكون الصلح مع تيتو بوصفه رئيس دولة أخرى فحسب ، لا بوصفه زميلا فى الحركة الشيوعية ... أى مع التمسك برأى روسيا القديم فيه وهو انه خارج على الحركة الشيوعية ...

ولكن خروشتشوف استهل خطابه فى مطار بلغراد بقوله :

«أيها الرفيق تيتو» .. وايها « الرفيق » لا يوجهها الشيوعى الا الى زميل له ...

ثم أن خروشتشوف لم يكتف ـ فى خطابه ـ بالاعتذار الى تيتو عن الاتهام الاول الذى وجه اليه.. وهو تجسسه على المعسكر الشرقى (التهمة التى ألصقها به بيريا) .. بل برأه من التهمة الثانية التى طرد بسببها من الكومنفورم .. وهى تهمة الانحراف عن الحركة الشيوعية اذ قال خرشتشوف فى خطابه : « ان هناك أكثر من طريق للوصول الى الاشتراكية » الامر الذى قد يكون اقرارا ضمنيا لحق تيتو فى سلوك الطريق الذى اختاره .

فالاعتذار لتيتو اذا ينطوى على معان كبيرة تدل على تغير كبير فى السياسة كان محل مناقشات طويلة فى الحزب ، وان سكرتير الحزب قد قام بتنفيذها ، ولو ان وزير الخارجية لا يقرها تماما .

المسألة الثالثة التى احسست أنها محل مناقشات طويلة ماتزال مستمرة فى الحزب حتى الآن هى : الانتقال من المجتمع الاشتراكى الى المجتمع الشيوعى .

وقد ذكرت فيما سبق أن هذه المناقشات بدأت فى أواخر عهد ستالين وضربت مثلا عليها بالمناقشة التى دارت حول نظام المزارع الجماعية ...

والظاهر أن هذا النقاش قد تجدد على نطاق واسع ، فقد جاء فى أكثر من خطبة من خطب القادة هناك أن الحزب الشيوعى تنتظره مهمة ضخمة ، هى الانتقال بروسيا من المجتمع الاشتراكى الى المجتمع الشيوعى . واعتذار مولوتوف الذى نشرته الصحف أخيرا دليل آخر على أن مناقشات هامة تدور فى داخل الحزب

حول هذا الموضوع ...

فقد اعتذر مولوتوف لانه قال منذ ثلاثة شهور ان روسيا قد نجحت فى اقامة (دعائم) مجتمع اشتراكى ، وقال ان الحقيقة هى أن روسيا لم تقم (الدعائم) فقط ، بل لقد انتهت من اقامة المجتمع الاشتراكى نفسه بالفعل .

والفارق بين القولين هو أنه اذا كان قد تم بناء المجتمع الاشتراكى فمعنى ذلك انه يمكن البدء فى الاستعداد للانتقال الى المجتمع الشيوعى .. أما اذا كانت «الدعائم» فقط هى التى أقيمت فمعنى ذلك أن هذا الانتقال يجب أن يتأخر ...

*

هذه الظواهر كلها تعزز ما أحسست به خلال زيارتى للاتحاد السوفيتى ، وهو : أن روسيا الآن تمر بمرحلة هامة فى تاريخها ، وأن هذا التطور يتبلور فى المناقشات الشاملة التى تدور بين جدران الحزب لتقرير الاتجاهات والخطط الجديدة فى كل ميدان .. وان أساس هذا التطور هو اقتناعهم بان المرحلة الماضية من هدف الثورة الروسية قد تمت ورسخت قواعدها ...

فهل تنطوى هذه الخطوات الجديدة على معنى العدول عن (النظرية) التى تحكم روسيا ؟..

كلا .. بل أنها تحمل معنى المضى بها خطوة أخرى ..

وقد قال خروشتشوف لبعض الصحفيين : قولوا للذين يتوقعون منا أن نعدل عن النظرية الماركسية ... أنه خير لهم أن ينتظروا (وقوع شم النسيم فى يوم ثلاثاء) !!.. وهو مثل روسى معناه : فى المشمش !!..

اتخذت الحرية ، على مر العصور ، أشكالا كثيرة ...
وكان لكل نوع من الحرية منطقها الخاص بها ...
وعندنا فى هذا العصر بالذات ، اكثر من نوع من هذه الحرية.
هناك مثلا الحرية الفردية التى نجدها فى بلد مثل فرنسا. فأنت هناك تستطيع ان تدعو الى أى مذهب تشاء .. تستطيع ان تدعو الى الامل أو اليأس ، بل وتستطيع ان تدعو حتى الى الانتحار ..
أما فى الاتحاد السوفيتى فالحرية لها معنى آخر . ان «الجماعة» هناك مقدمة على الفرد ، فالكاتب الفرد ليس من حقه أن ينشر كل ما يهجس فى عقله أو فى ضميره أيا كان هذا الهاجس . انه عضو فى جمعية للكتاب ، وهذه الجمعية تناقش الكتب التى تقدم اليها وهى التى تقضى بنشرها أو بعدم نشرها، طبقا لماتراه من موافقتها أوعدم موافقتها للاتجاهات العامة التى تراها ...
أترى يكون هذا الوضع مواتيا لحرية الكاتب فى التعبير ؟..
أترى هذه « الجمعية » تكون فى جانب الصواب على الدوام ؟ متجردة عن الهوى فى كل ما تصدر من أحكام ؟..

عند ما وصل البلاشفة الى الحكم في روسيا ، اقاموا نظاما جديدا للدولة والمجتمع ، سموه بلا مواربة « دكتاتورية الطبقة العاملة » ...

اذا فهي الطبقة العاملة التي قبضت على زمام الحكم ، وقد استهدفت الغاء الطبقات الاخرى الغاء ، واستعملت في ذلك اسلوبا يستند الى القوة . أي اسلوبا دكتاتوريا ...

هم لا ينكرون اذا انهم بدأوا يحكمون حكما دكتاتوريا ، بقصد الوصول الى «ديمقراطية» جديدة ، لا طبقات فيها ...

بدأوا يحكمون حكما دكتاتوريا ، بمعنى ان الخطوات التي اتخذت لتغيير شكل المجتمع ، لم تكن تطرح للمناقشة ، ثم تبرم أو تنقض بأغلبية الآراء .. انما كانت هذه الخطوات تملى املاء ، بقصد السير في الطريق الى خلق مجتمع شيوعي ...

وزعت الارض على الفلاحين في أول الثورة بهذا الاسلوب .

ولما جاء ستالين ، حول الارض الى نظام المزارع الجماعية بهذا الاسلوب أيضا ...

كذلك كان الامر بالنسبة للادب ، أصبح مطلوبا منه ان يدعو الى المجتمع الاشتراكي ويعبر عنه ، وان يهدم كل المعتقدات التي كانت تصاحب المجتمع الاقطاعي القديم ...

ولم يكن مسموحا لاحد بأن يكتب ضد هذا الاتجاه .

كما ان الفلاح في حقله ، والعامل في مصنعه ، يعمل من أجل المجتمع الاشتراكي ، وضمن الخطة العامة الموضوعة له ، كذلك الكاتب في صحفه أو كتبه ومؤلفاته ...

كما ان الفلاح يزرع نوع المحصول الذي تتطلبه مصلحة البلاد

العامة ، فهو ليس حرا فى أن يزرع مايشاء .. كذلك الكاتب عليه ان يكتب ما تدعو اليه حاجة البلاد، طبقا للخطة التى تقررها الهيئة المسئولة التى تدير دفة البلاد ...

هذه الهيئة هى الحزب ...

ومن الحزب تخرج فروع تشرف على الصناعة والتجارة . وعلى الفكر والادب ...

الكاتب عامل فى المجتمع ، ملك لهذا المجتمع ، كالفلاح والصانع والمهندس والرسام .

لقد وصف ستالين الاديب بأنه «مهندس الروح الانسانية !».

انه مهندس اذا كسائر مهندسى الزراعة والمبانى ...

ولكن ميدان نشاطه هو نفوس البشر وارواحهم وعقولهم ...

وكما انه لا يتصور ان نرى مهندسا للمبانى يستعمل البناء لغير غرض الا لمجرد البناء ، وكما انه لا يتصور ان نرى مهندسا زراعيا يشق الارض لمجرد شق الارض لا ليزرع نباتا يؤكل ... كذلك فان المهندس الادبى لا يصح ان يكتب (فنا للفن) فحسب. ان مهندس المبانى يبنى العمارة ليسكنها الناس ، ومهندس الزراعة يزرع الارض ليخرج طعاما للناس ، كذلك فالفن يجب أن يكون له غاية وغرض فى حياة الناس .

هذا هو منطق الحياة الادبية والفكرية فى الاتحاد السوفيتى.

وقد كتب الكاتب الانجليزى ج. ب. بريستلى بعد ان لقى عددا من الكتاب الروس ، يقول « ان الفرق الاساسى بين كتاب الغرب والكتاب الروس ان الكتاب الروس لا يؤمنون بالادب المجرد . الكتاب الغربيون يعتقدون أنه من الممكن انتاج

أدب رائع لا صلة بأى مجتمع أو سياسة أو اقتصـاد ، انما يهتم بعالم الفرد الخاص من الحب والكره، والامل واليأس، أما الروس فانهم لا يوافقون » •••

ثم يقول بريستلى انه يعتقـد ان هذا التزمت من الكتـاب الروس تزمت وقتى، «فهم يؤمنون بأنهم ورثة ثورة ضخمة ، وأنهم يحملون عبء رسالة خطيرة فى مرحلة حرجة لا تحتمل التساهل»، ثم يقول ان هذا طبيعى « فنحن الكتاب الغربيون ، كنا فى أزمة الحرب العالميـة سنة ١٩٤٠ مثلهم ، لا نكتب الا ادبا للمجتمـع والسياسة والاقتصاد » •••

ويختم بريستلى كلامه بحقيقة اوافق عليها : ربما فرض النظام الشيوعى نفسه على الكتاب فى أول الامر ، ولكنهم الآن يؤمنون به ، ويدافعون عنه مقتنعين •••

وقد كتب الكاتب الروسى كونستانتين سيمونوف ردا على كلام بريستلى ، وهو رد هام يقدم لنا مزيدا من الضوء ، ويشرح لنا معنى « حرية الاديب » فى روسيا السوفيتية •••

قال سيمونوف : ان الكاتب السوفيتى ليس فرديا ، انما اشعره النظام بأنه جزء من المجموع • وهو ليس مراقبا للاحداث ومعلقا عليها فقط ، انه يشارك فيها ويساهم بأدبه فى البناء • ثم قال : ان الادب الحر فى رأيه هو الادب المتحرر من سيطرة الاعتبارات المالية •• فالاديب الذى يكتب مدفوعا بدافع الكسب ، والاديب الذى يطالبه الناشر بأن ينتج شيئا معينا وباسلوب معين لكى يكون كتابا رائجا (Best Seller كما يقولون فى امريكا) والاديب الذى يعمل فى جريدة معينة فهو لا يكتب رأيه بقدر ما يكتب رأى صـاحب

الجريدة الذى يدفع له الاجر .. كل هؤلاء الكتاب ليسوا أحرارا فى رأى سيمونوف . لان التفكير فى ايراد الكتاب يعرقل عملية التفرغ لتأليف الكتاب ، والخضوع لصاحب الجريدة أو صاحب دار النشر يقيد حرية الكاتب فى التفكير .. أما عندهم، فى الاتحاد السوفيتى ، فالكاتب لا تقيده الا السياسة العامة والاهداف العامة التى تراها (جماعة الكتاب) نفسها !..

ثم يستطرد سيمونوف الى الرد على ما يقال من ان توجيه الكتاب على هذا النحو معناه ان يتحول انتاجهم كله الى أدب الدعاية .. فيقول : نعم ، انه أدب دعاية ! وأنا مغرم كثيرا بكلمة « دعاية » هذه . ان الدعاية هى الاستعمال الوحيد لاختراع جوتنبرج العظيم . وبغير الدعاية يصبح رقم ١ هو أحسن الارقام . اذ تكفى حينئذ نسخة واحدة من كل كتاب فى درج المؤلف ! ان كل كاتب ايا كان ينفق عمره فى الدعاية لافكاره ! ».

كيف تدور عجلة هذا النظام بالنسبة للصحافة وللانتاج الادبى على السواء ؟..

كيف يعمل الكتاب وينتجون فى ظل هذا النظام ؟..

لقد زرت مقر جريدة (برافدا) ، وزرت مقر الجريدة الادبية « ليتراتورنيا جازيتا » ولقيت فى المآدب والحفلات التى أقيمت لنا عددا من الكتاب والادباء والصحفيين والشعراء ... وكنت فى خلال الرحلة لا اكف عن فحص الصحف والمجلات الروسية ، محاولا أن أستعين بالمترجمين للالمام بالموضوعات التى تعالجها ..

وأول ما يلفت النظر فى الصحف الروسية ، أن عدد صفحاتها أقل بكثير مما نعهده فى الصحف المصرية أو الاوروبية

أو الامريكية ...

ان جريدة (برافدا) مثلا ، وهى أكبر الصحف اليومية هناك ، عبارة عن ورقتين ، أى اربع صفحات فقط ، فى حين ان معدل حجم الجريدة اليومية فى مصر يتراوح بين ٨ صفحات و ١٤ صفحة ، وفى فرنسا يصل أحيانا الى عشرين صفحة ..

وليس فى الجريدة « الخدمة » الصحفية التى نعرفها .. ليس فيها اعلانات ولا « مانشيتات » ولا ألوان ، وليس فيها المادة الاخبارية المصورة الضخمة التى تغطى شتى وجوه النشاط ... من أخبار سياسية الى اجتماعية أو اخبار شخصية أو أخبار الحوادث والجرائم ...

فالاخبار الشخصية هنا لا مكان لها على الاطلاق . والصحافة الروسية كلها لا تجد فيها «اسرار» ولا « حاول ان تفهم » ولا أى ابواب من هذا القبيل ...

والصور فى غير المجلات المصورة قليلة ، أغلبها صور للرسميين أو لبعض مظاهر النشاط الانتاجى والمشروعات الجديدة والجريمة تكاد لا تنشر أخبارها .

وقد سألت بعض الصحفيين الروس فى ذلك فقالوا ان السبب هو ندرة الجرائم ...

وما أظن أن هذا التعليل صحيح . لان ندرة الحادث قد تكون أدعى الى الاهتمام بنشره . انما أرجح ان الدولة هناك لا تحبذ نشر أخبار الجريمة بوجه عام ، بسبب ما قد يكون فى ذلك من تأثير على عقول الناس ونفوسهم .

ونحن فى مصر نسمع من حين الى آخر دعوة تنادى بعدم نشر

أخبار الجريمة ، ولست اوافق على هذا الرأى . فهناك فرق بين نشر اخبار الجريمة وبين استغلالها لافتعال الاثارة والوقع العنيف فى نفس القارىء . وعدم نشر الجريمة معناه وضع الرؤوس فى التراب كما يصنع النعام ، ومعناه اعطاء الناس صورة زائفة للمجتمع الذى يعيشون فيه ...

والحقيقة التى تعيننا على فهم الصحف الروسية ، هى أنها — كما قلت — ليست مؤسسات تجارية ، فهى معفاة من اساليب المنافسة الصحفية المعروفة ، كالبحث عن المواد المثيرة ، والسبق بالانباء ، والتفنن فى الاخراج ، ولهذا السبب أيضا لا تجد هناك الصحيفة أو المجلة «الجامعة» أى التى تضم أبواب السياسة والفن والادب والمرأة والجريمة . فالمجلة فى مصر مثلا تحاول ان تضم هذه الابواب كلها لكى تجمع حولها اكبر عدد ممكن من القراء ، من شتى الميول والاتجاهات . أما هناك فالصحف متخصصة .. جريدة للسياسة فقط ، وجريدة للادب فقط ، وجريدة للمرأة ، وجريدة للعمال ، وهكذا ... وان كان التوجيه السياسى موجودا وسائدا فى جميع هذه الصحف ...

وجريدة (برافدا) هى الجريدة السياسية الاولى هناك ، وهى فى الوقت نفسه لسان حال الحزب الشيوعى .

ويرأس تحرير برافدا الآن الرفيق شبيلوف الذى زار مصر منذ بضعة شهور ، والذى اقترن اسمه فى الصحف الغربية بعقد صفقة الاسلحة المصرية الشهيرة . وهو فى الوقت نفسه يشغل مركز احد سكرتيرى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، مما دعا بعض الصحف الغربية الى التنبؤ بأنه قد يكون وزير الخارجية الذى

يخلف مولوتوف .

وجريدة برافدا — ككل جريدة أخرى — لها مجلس ادارة يتكون من رؤساء الاقسام فى الجريدة ، وهذا المجلس هو الذى يرسم سياسة الجريدة ، فى الخطوط التى يضعها الحزب بالطبع ...

والمكان الاول فى برافدا للتصريحات والاخبار الرسمية . وفى صدرها كثيرا ما تجد مقالا افتتاحيا يكتبه (جوكوف) نائب رئيس التحرير ...

قلت للرفيق جوكوف . وهو رجل بدين ، يتكلم ببطء ، وفى عينيه خشونة ودهاء :

— هل عندكم هنا شيء اسمه السبق الصحفى ؟ هل يحدث أحيانا ان تسبق احدى الصحف زميلاتها بخبر هام ؟..

وكنا جالسين فى قاعة كبيرة بالمبنى الضخم الذى تشغله الجريدة وعلى المائدة اطباق محملة بالفاكهة وعلب سجاير مختلفة ومياه معدنية ...

وسكت جوكوف طويلا كأنه يفكر — فهذه عادته — ثم قال :

— هذا ممكن، ولكنه نادر جدا ، وكل جريدة تحاسب مندوبها الذى يقصر فى الحصول على خبر تنشره صحيفة أخرى ...

— ولكن هذا السبق لا يتطرق الى تخمينات مثلا عن السياسة العامة للدولة قبل أوانها ؟

— لا ..

— وهل تعلق الجريدة على الحوادث بمجرد وقوعها ، أم تنتظر حتى تتبين سياسة الحزب ورأيه فى هذه الحوادث ؟..

— ان الحزب يرسم سياسة عامة ، ومجلس ادارة الجريدة

يبحث الآراء التى تنشرها الجريدة مسترشدا بهذه السياسة ..

ـ اننا نلاحظ احيانا ، ونحن خارج الاتحاد السوفيتى ، ان برافدا كثيرا ما تسكت عن التعليق على بعض الاحداث العالمية يومين وثلاثة ايام قبل ان تشير اليها برأى ...

ولم يفكر طويلا هذه المرة ، وقال : عندنا مثل يقول « النجار الماهر يقيس سبع مرات ، ويقطع مرة واحدة ! » ...

ـ ان برافدا هى لسان الحزب الشيوعى ، وازفستيا هى لسان الحكومة ، هل يحدث احيانا ان تثور بين الجريدتين مناقشات أو خلافات ما ؟..

وابتسم جوكوف كأنه ضبطنى وأنا احاول أن « أجر رجله » وقال : يحدث أحيانا .. دون أن يعنى هذا وجود خلاف بين الحزب والحكومة !..

ـ والى أى حد يمكن ان تنتقد الصحف الحكومة ؟..

وجهت اليه هذا السؤال فى تردد ، لاننى لاحظت ان الروس حساسون جدا اذا حدثتهم عن الحرية بمعناها المعروف فى الغرب، وعدم وجودها لديهم ...

ولكن جوكوف لم يغضب ، انما قال فى هدوء من يريد ان يقيس كل كلمة :

ـ فى روسيا لا يوجد رأى مناهض للدولة السوفيتية ذاتها ، ولكن الصحف قد تنتقد التقصير فى أى فرع من فروع العمل .. كأن تهاجم وزارة الفحم مثلا بسبب قلة الفحم فى الاسواق ...

وقبل ذلك ، كنت قد وجهت نفس السؤال الى صحفى آخر كان يجلس بجوارى فى احد المآدب .. كنا نتحدث عن

رحلة بولجانين وخروشتشوف الى يوغوسلافيا وصلحهما مع تيتو .
وقال لى الصحفى فى اثناء الكلام ان هذه كانت خطوة حكيمة بغير شك ، ولكن كثيرا من الروس كانوا غير موافقين عليها ، ربما بدافع الكبرياء الوطنى فحسب ...

واسرعت اسأل محدثى: وهل نشرت الصحف شيئا عن اعتراض هؤلاء الناس ؟

فقال لى : لا ...

وفهمت ان السياسة العليا ، والسياسة الخارجية ، لا تناقش من وجهات النظر المختلفة على صفحات الصحف . انها تناقش داخل الحزب ، وما يستقر عليه الرأى هناك تتبناه الصحف وتدافع عنه..

وفى اليوم التالى لزيارة (برافدا) زرت مقر (ليتراتورنيا جازييتا) ، أى الجريدة الادبية ...

انها جريدة فى حجم برافدا وغيرها من الصحف اليومية . تصدر ثلاثة أيام فى الاسبوع ، وتوزع ٧٠٠ ألف نسخة .

وكان هناك عدد كبير من المسئولين عن الجريدة الادبية ...

كان هناك «كوسلانوف» نائب رئيس التحرير . و«أناستاسييف» رئيس القسم الفنى ، وسرجى لبوف رئيس قسم الادب الاجنبى ، والكاتب المسرحى الكبير نيكولاى بوجوديين ، والشاعر دولماتوفسكى ، ثم بوريس ليوتنيف المسئول عن السياسة الخارجية فى الجريدة ...

وقال «كوسلانوف» نائب رئيس التحرير : ان الجريدة تهتم اساسا بالادب ولكنها تعالج المسائل السياسية والاجتماعية أيضا . ان رسالتها هى تأييد كل عمل تقدمى فى البلاد ، وربط الثقافة

بنضال الشعوب .. فان الكتاب السوفييت لا يقفون مكتوفى الايدى امام مشاكل الحياة فى بلادهم ، انما يتدخلون فيها ويساعدون الناس على حل مشاكلها ، وسلاحهم فى ذلك كله هو الادب الواقعى ...

وسألته ، ما هو مفهوم الادب الواقعى فى رأيه ..

وهنا بدا على اكثر من واحد منهم أنه يريد ان يتكلم ...

قال كوسلانوف : انه الادب الذى يعطى صورة صحيحة للحياة ، والذى يكون جديرا بمستقبل أفضل ...

وقال الشاعر دولماتوفسكى ، وهو رجل أشيب الشعر يتحدث بلهجة خطابية وعلى فمه ابتسامة : ان الواقعية فى الادب الروسى واقعية اشتراكية .. فهى تستوعب الواقعية الرومانتيكية عند هيجو ، والواقعية الساذجة عند جوجول ، كما أنها تضم فى ردائها تولستوى وبلزاك أيضا .. وهذه الاتجاهات يزيدها غنى عند الاديب الروسى المبدأ الاشتراكى الذى يدين به .. نحن من انصار واقعية المضمون ، وبالذات الواقعية التى تدعو الى مستقبل أفضل ، التى تروى المأساة وترسم لنا طريق الخروج منها .

وأراد الكاتب المسرحى نيكولاى بوجودين ان يلقى ضوءا آخر على الواقعية الاشتراكية ، فقال : نحن نكره الادب الذى يصور الانسان أقل مما هو جدير به ، ذلك أننا نؤمن بأن الانسان هو القوة الرئيسية التى تغير العالم ...

وعاد الشاعر دولماتوفسكى يضيف : ان الواقعية الاشتراكية أيضا ترفض تصوير الحياة والانسان فى حالة جموده انا نؤمن بأن الانسان والحياة فى حالة تطور . والادب الواقعى لا بد ان يصور

هذا التطور ، هذا الصراع المستمر بين القديم والجديد ...

وكان سؤالى الاخير : هل هذه الاسس محل اتفـاق تام بين الكتاب والادباء الروس ؟ الا يثور بينهم خلاف ، أو نقاش ، حول هذه المسائل ؟..

ومرة أخرى ، الاحظ ان الروس كلهم حساسون اذا جاء ذكر حرية الجدل والاختلاف . فقد وقف الشاعر دولماتوفسكى هـذه المرة على قدميه ، وقال فى لهجة تشبه العنف : ان هذه المسـائل وغيرها تثير جدلا عنيفا مستمرا بين الكتاب السوفيت . ومناقشة المسألة الواحدة كثيرا ما تستغرق يومين وثلاثة أيام متواليـة فى اجتماعات اتحاد الكتاب السوفيت !...

ولكن . . ما هى هذه المؤسسة ، اتحاد الكتاب السوفيت؟..

ان اتحاد الكتاب السوفيت هيئة خطيرة وضـخمة .. فهى الهيئة المهيمنة على الانتاج الادبى فى الاتحاد السوفيتى كله ...

كما أن كل فئة من العمال لهم نقابة ، فان الكتاب الادباء فى الاتحاد السوفيتى يضمهم هذا الاتحاد . فعدد الكتاب الاعضاء فيه يبلغ ٣٦٩٥ عضوا ...

وشرط العضوية الاول هو ان يكون للمؤلف انتاج يرى الاتحاد بعده أنه يستحق القبول ...

وقد تأسس هذا الاتحاد لاول مرة سنة ١٩٣٤ ، وكان رئيسه مكسيم جوركى الذى ظل يرأسه الى أن مات ...

واتحاد الكتاب السوفيت فى موسكو ، وفروعـه فى مختلف جمهوريات الاتحاد السوفيتى ، هو الذى يتولى طبع ونشر الكتب ويتولى تحصيل حقوق الأدباء عن الطبعات التى تظهر لمؤلفاتهم ،

أو عن اخراجها فى الاذاعة أو على المسرح أو السينما •

وقد سألت الشاعر دولماتوفسكى ، هل لهذا الاتحاد سيطرة على رأى الكاتب ؟•• فقال لى باسلوب شاعرى : ان الاتحاد لا يفرض ارادته على الكاتب ، فكل واحد يكتب كلمات قلبه !

ولكن •••

هنا أيضا نجد أن الحرية الفردية بالمعنى السائد عندنا ، معدومة •••

فانه ليس من حق الكاتب ان يطبع أى كتابا يشاء • انه لا يستطيع ان يطبعه وينشره على نفقته مثلا ، لان دور النشر تابعة لاتحاد الكتاب السوفيت ، انما عليه ان يقدم كتابه مخطوطا الى هذه الهيئة ، وفى الهيئة لجان تناقش الكتاب المخطوط ثم توافق على نشره أو لا توافق ••• أى ان الكتاب لا بد ان يكون متمشيا مع السياسة العامة التى يراها الاتحاد •••

ما هو مدى استقلال هذا الاتحاد الحقيقى عن الحكومة ، أو عن الحزب ؟••

وما هو نوع التيارات الادبية التى تتضارب فيه ؟••

وهل هذا الاتحاد يخنق الحرية ، أم أنه ينظمها فحسب ؟••

لا استطيع ان أقول اننى وصلت فى هذه الزيارة الخاطفة الى اجابة حاسمة عن هذه المسائل •••

ولكننى استطعت ان اقرأ وثيقة أدبية هامة •••

لقد عقد اتحاد الكتاب السوفيت آخر مؤتمر عام له سنة ١٩٥٤ ، وكان هذا ثانى مؤتمر له ، فهو لم ينعقد منذ سنة ١٩٣٤ الا فى سنة ١٩٥٤ ، بعد موت ستالين وهى ظاهرة لها دلالتها •

والوثيقة الادبية الهامة هى محضر مناقشات هذا المؤتمـر . وهى ليست وثيقة سرية، انما هى منشورة فى المجلات الادبية .

لقد حضر المؤتمر ٧٢٠ مندوبا يمثلون فروع الاتحاد فى جميع أنحاء الاتحاد السوفيتى ...

ورأس المؤتمر «الكسى سوركوف» ، الذى القى خطبة افتتاح نوه فيها بالجهد الذى يبذله الادباء الروس فى الترجمة من حيث الكمية ، ثم هاجم هذه الترجمة من ناحية الكيف ، فقال ان اكثرها ترجمات حرفية لا تنقل الروح الفنية فى العمل الاصلى ، ثم تحدث عن الانتاج الادبى فهاجم ايليا اهرنبورج.. لانه فى روايته الاخيرة «ذوبان الثلوج» نشر تجاربه الشخصية فحسب ، وهاجم «سرجى توتارينوف» لانه خلق فى رواياته شخصية مثالية «سوبرمان» ليست واقعية فى شىء ...

ثم لاحظ رئيس المؤتمر ان مستوى السن بين اعضاء اتحاد الكتاب يزداد ، ومعنى ذلك ان الادباء الشبان لا يجدون تشجيعا كافيـا ، وان الادباء الكبار فى الاتحاد لا يفتحـون لهم الابواب كما يجب .

وبعد ذلك احتدمت المناقشات ...

هاجم « سيمونوف » ـ ويقولون عنه انه الاديب الرسمى فى روسيا ـ هاجم قلة قصص « الحب العظيم » فى الادب الروسى ، وعدم توفر عنصر الدراما فيه ...

وتحدث ف.أوفشكين عن الحياة الخاصة التى يحياها الكتاب، فقال ان الكاتب فى روسيا اذا نجح فسرعان ما يفر من الحياة فى الريف والمدن الصغيرة، ويشد رحاله الى موسكو ، حيث يهتم

بترتيب حياته الشخصية . وفى موسكو يعيش الكتاب فى عزلة نسبية عن الحياة التى تحيط بهم . فهم يسكنون فى عمارات معينة فى شارع « لافروشكين » ، ويسهرون فى الاندية الخاصة بهم ، فلا يلبث مستوى انتاجهم ان يهبط لبعدهم عن مصادر الهامهم الحقيقية ...

واستطرد اوفشكين قائلا : ان الاتحاد السوفيتى لم ينجب عباقرة فى مستوى الادباء الروس القدامى، مثل جوركى وتشيكوف

وتكلم ميخائيل شولوخوف . وشولوخوف له هناك مركز خاص فى الحياة الادبية ، فهو مؤلف رواية (الدون الهادىء) التى تعد هناك اروع رواية اخرجها العصر السوفيتى ، ويضعونها فى مصاف الاعمال الادبية الاولى فى العالم .

وكانت الصحف الغربية قد رددت اشاعات كثيرة حول شولوخوف ، تتلخص فى انه قد اعتزل الكتابة طوال السنوات الاخيرة فى حكم ستالين ، لانه لم يكن راضيا عن الاسلوب الذى يوجه به الانتاج الادبى هناك ...

وليس هناك ما يؤيد هذه الاشاعات . وشولوخوف على أية حال قد اشترك فى هذا المؤتمر الاخير . والقى فيه خطابا عنيفا هاجم فيه «هبوط مستوى الكتابة» بسبب سيل الكتابات الرخيصة التى تغمر الكتاب المجيدين ، حتى ان البارزين من الكتاب أصبحوا يفضلون سرعة الانتاج وكثرته على الصنعة الدقيقة الحاذقة» .

ثم هاجم شولوخوف المسئولين عن الجريدة الادبية . وأعلن ان هناك مقالات نقد رائعة ترفض الجريدة نشرها ، وقال ان الاشراف على مثل هذه الجريدة يحتاج الى من يهتمون بالادب

لا بأشخاص الادباء ، وقال : ان الكاتب اذا تحجر ولم يعد قائدا ، فانه يصبح كالصخرة فى مدخـل النهر ، تمنع الماء الجـديد من الجريان ...

وقال شولوخوف ان من اسباب هبوط مستوى الكتابة ، نظام منح الجوائز الادبية بواسطة الدولة : فان وضع الاعمال الادبية فى درجات اولى وثانية وثالثة امر خطير يجعل الاعمال الادبيه كأى سلع تجارية أخرى فى السوق .. وان هناك مؤلفات كثيرة جيدة ليس لها من الجوائز نصيب ، ولها من اقبال القارىء اكبر نصيب.

وختم شولوخوف كلمته بحملة عنيفة شنها على سيمونوف ، فقال : ان ادب سيمونوف له ظاهر براق وليس له أى قيمة فى واقع الامر ومع ذلك فهو ينال بمعدل ثلاث جوائز كل سنة !.. ثم قال: ان المنافقين من النقاد حول سيمونوف كثيرون ، ولكن سيأتى يوم يقول فيه صبى للملك : انه عار لا يلبس على جسده شىء ...

يشـير بذلك الى حكاية هانز اندرسـون المعروفة عن الملك وحاشيته من المنافقين ..

وكان آخر من تعرض للحملات فى هذا المؤتمر ايليا اهرنبورج. ولهذه الحملة قصة ...

فقد كتب اهرنبورج بعد وفاة ستالين رواية سماها (ذوبان الثلوج) ... وقد احدث ظهور هذه الرواية دويا هائلا فى الاتحاد السوفيتى ، لانه أورد فيها حوادث وآراء لم يكن من المألـوف تقديمها فى الادب السوفيتى ...

فبطلة القصة ــ مثلا ــ زوجة عضو فى الحزب الشـيوعى ، وهى تقع فى حب رجل آخر ليس عضوا فى الحزب . ونهاية القصة

تنجلي عن ان الرجل الثانى الذى ليس عضوا هو المواطن الصالح بعكس الاول !..

ومن ابطال القصة فنانين ورسامين يهاجرون الى الريف هربا من ضيق الافق والتعسف الذى يسود الدوائر الادبية فىالعاصمة.

والقصة تختم بدعوة الى ان (يذوب الجليد) ، وهو تعبير معناه ان يذهب الشتاء ويأتى الربيع !

واعتبرت هذه القصة تلميحا الى كثير من الاحوال العامة فى روسيا .

واعتبرتها الدوائر الادبية الغربية اشارة الى التغير الذى بدا منذ وفاة ستالين .

ولكن اهرنبورج دافع عن قصته بحرارة وشن حملة ضخمة على النقــاد الذين اتهموه بالانحراف وبالاســاءة الى المواطن السوفيتى ، فرد هجوم النقاد قائلا : « نحن متهمون فى الخــارج بالتعصب ، وبانعدام الفردية الخالقة ، ان الاحكام التعسفية ضارة بالادب وبالادباء الناشئين بوجه خاص » ...

*

واروع الفنون ازدهارا فىالاتحاد السوفيتى، هو فن الباليه..

لقد رأيت هناك المسرح والاوبرا والرسم والنحت .. وهى على درجات متفاوتة من الجودة . ولكننى لن انسى أبدا الليالى التي رأيت فيها سندريللا .. وبحيرة البجع .. وأزميرالدا ...

وازدهار الباليه هناك ليس شيئا غريبا ، فهو فن تفوق فيــه الروس منذ زمن قديم ، وهو فن تبذل له الدولة عناية بالغــة ، رأيتها فى آلاف البنات الصغيرات ، اللواتى يتعلمن الباليه وهن فى

الخامسة من العمر .. فلا بد أن تبزغ من هذه الآلاف راقصات كاللواتى رأيتهن فى مسرح « بلشوى » ومسرح «ستانسلافسكى» يرقصن رقصة الساعات فى « سندريللا » والرقصة الرباعية على موسيقى تشايكوفسكى فى « بحيرة البجع » .

عشرات من الراقصات فى ثيابهن البيضاء كالحوريات ، يرقصن فى رقة كالوهم ، والاخراج المعجز الذى يجعلك ترى كل شىءعلى المسرح مجسدا ، سواء كان عاصفة هوجاء فى البحـر ، أو كان بحيرة ساكنة يسبح فيها البجع ، أو معركة حربية تشب فيها النار وتتهاوى الجدران ...

ولكنه ، فى هذا الجو الحالم ، يتدخل «الرأى» و «التوجيه». فالنهاية التقليدية لـ « بحيرة البجع » نهاية حزينة ، يختطف فيها الشر حبيبة البطل ... هكذا تقدمها كل فرق الباليه فى العـالم ، وهكذا فيما اعتقد وضعها تشايكوفسكى بموسيقاه .. أما هناك ، فانهم يغيرون النتيجة ، لان كل عمل فنى يجب أن يبشر بالامل ولا ينتهى الى الحزن .. فهم يديرون معركة تنتهى بانتصار الخير ، وبقتل « الشر » وعودة الفتاة الى حبيبها ...

هل هذا التصرف جائز ؟..

لا أظن ذلك ...

ان هذا التغيير فى « بحيرة البجع » معناه اننا يمكن ان نغير مثلا نهايات روايات شكسبير . فلا نجعل « ياجو » مثلا وهو رمز الشر فى مسرحية « عطيل » يفلت من العقاب ...

ثم ان هذا الفهم للتفاؤل ــ فيما اعتقد ــ فهم ساذج .
ان التفاؤل ليس رهنا بالنهاية السعيدة أو الحزينة ، انما هو

رهن بالموجة العامة التى تندفع وتنتشر فى النفس بعد قراءة القصة أو مشاهدة المسرحية ، وهل هى موجة تغرى بالأمل أو تدفع الى اليأس ...

قد تنتهى قصة ما بمصرع البطل، فهى نهاية غير سعيدة، ولكن قد يكون مصرع البطل استشهادا باسلا يضيف الينا ثقة جديدة فى بسالة الانسان وقدرته ، ويشعرنا بأن ثمة فى الحياة اشياء جميلة مبشرة تستحق ان نضحى من أجلها حتى بالحياة ، فهى نهاية متفائلة رغم ان البطل قد مات فيها . وقد تنتهى قصة أخرى بنجاة البطل أو بزواجه من البطلة ، كما يحدث فى كثير من الروايات ، ولكنها نجاة تحمل معانى الانسحاب والانكسار والعدول عن الغرض ، أو زواج يحمل معنى تغطية العار والفرار من الحياة الواسعة وطى المشكلة بين جدران بيت مغمور . فهى نهاية « سعيدة » بالمعنى الساذج ، ولكنها لا تدعو الى التفاؤل ، لان البطل الذى نجا قد توقف عن صنع التاريخ ، قد توقف عن المشاركة فى دفع الحياة الى الامام ...

العبرة اذا ليست بنهاية سعيدة ساذجة ، انما العبرة بنوع الاحساس العام الذى يبثه العمل الفنى فى القارىء أو المشاهد . فحتى لو كان جائزا أن تتغير « بحيرة البجع » لما وجب ان يكون هذا التغيير مجرد تغيير فى النهاية ، يجعل ختامها فى نجاة البطلة وفوز البطل بها ...

ولكن الاخراج فى الباليه وفى الاوبرا وفى روايات المسرح على السواء يبلغ أقصى حدود الروعة ...

والمسرح هناك كالخبز، تجده فى كل مكان، ففى الجامعة مثلا،

وفى المدينة العمل ، وفى كل مكان تجد مسرحا ضخما مستعدا بأحدث معدات الاخراج المسرحى ...

وقد رأيت « هاملت » تقدمها فرقة موسكو ، فلم يجعلنى الاخراج البديع أشعر بأننى اراها باللغة الروسية التى لا أفهمها ، بل لكأننى أراها فى لغتها الاصلية ، وأفهم كل كلمة تقال فيها ..

والمسارح على الدوام مكتظة . وفى كل مرة كنا نذهب الى مسرح كنا نجد جماهير كثيرة تقف منتظرة ان يتخلف أحد الذين حجزوا تذكرة فيضطر الى عرض تذكرته للبيع .

وعندما زرنا مدينة « فولجاسكايا » الجديدة التى يبنونها على ضفاف النوبى ، وجدت أن أول بناء تم فى المدينة الجديدة ، قبل المساكن : مسرح كبير !

الى طشقند ..

تركنا موسكو ، لنركب الطائرة عبر سيبيريا ...

وعندما عبرت الطائرة منطقة الاورال ، اصبحنا فى آسـيا ، وانبسطت تحتنا الارض ، فلا جبال ولا وهــاد ! وظلت الارض مبسوطة هكذا اثنتى عشرة ساعة كاملة اجتزنا خلالها بحر قزوين. قبل ان نهبط فى طشقند ...

اننى لم أشعر بطول المسافة وتشابه الساعات كما شعرت وأنا أطير عبر سيبيريا ..

كنت فى الطائرة المسرعة أشعر بشعور البدو الذين يقطعــون الصحراء فى قافلة من الابل .. المسافة التى لا تنتهى والصــورة التى لا تتبدل . حتى الجو نفسه قد خلا تماما من عنصر التغيير أو الاثارة .. فلا ســحب ولا عواصف ولا مطبات ، انه فى شــهر سبتمبر صحو متصل ، ونسيم آسن ، وسكون لا يعكره سوى ازيز المحركات ...

وعندما كانت الطائرة تهبط بنا فى مطار منعــزل فى الطريق ، لا يعدو مجرد بضعة اكشاك وقطعة أرض ممهدة .. كنت اقف على

الارض وأتلفت فى الفضاء الهائل حولى ، وأشعر كأننى بعيد جدا عن الدنيا .

وكان قد انضم الينا فى موسكو مرافق آخر ، هو الرفيق عبد الرحمن سلطانوف ، لم يلبث ان أصبح محور النشاط والمرح والمناقشة بقية الرحلة ، خصوصا خلال مسافات السفر الطويلة...

وعبد الرحمن سلطانوف اسم معروف فى مصر والشرق العربى، فهو الذى جاء الى مصر كأول ممثل دبلوماسى للاتحاد السوفيتى خلال الحرب العالمية الاخيرة . وظل قائما بأعمال المفوضية الروسية فى مصر سبع سنوات متوالية .

ولم يزر سلطانوف مصر فقط ، انما زار أغلب البلاد العربية وعرفها جيدا ، فبعد ان درس اللغة العربية دراسة واسعة متقنة ، ذهب فى شبابه كمبعوث سياسى الى اليمن ، وقضى ستة شهور فى جدة ليجيد الكلام باللغة العربية .. أما الآن فهو استاذ فى معهد اللغات الشرقية فى موسكو، يدرس للشبان والشابات اللغة العربية واللهجة المصرية العامية بالذات ، ويقوم بدراسات وترجمات هامة فى هذا الباب .. وهو مطلع على أغلب الانتاج الادبى المصرى ، للشيوخ والشباب على السواء ...

والسنوات السبع التى قضاها سلطانوف فى مصر جعلته يكون فكرة دقيقة عن المجتمع المصرى ، ويتعرف الى كثير من الساسة البارزين فى ذلك العصر ، أما ابنه الشاب ، فقد نشأ وترعرع فى مصر ، وهو يتكلم اللغة المصرية كأبنائها ، وهو يعمل بالاذاعة العربية فى موسكو ...

وسلطانوف انسان مثقف ، من النوع الذى يبدو لك

طيبا بسيطا لا هم له الا المرح والدعاية واطلاق النكتة ، ولكنك لا تلبث ان تكتشف انه يخفى وراء هذا المظهر البسيط ذكاء ودهاء نادرين . فكلامه الساخر له دائما معنى . وعيناه الضاحكتان تلمحان كل شيء بسرعة . على أن اكبر موهبة فيه هى الالفة التى تشعر بها نحوه بسرعة . حتى لكأنك صديق له ، تعرفه وتحبه منذ زمن بعيد ...

كان لا يمر يوم الا وله نكتة يطلقها فتعيش بيننا بقية اليوم . وكانت مناقشاتى معه من افيد وامتع المناقشات التى شاركت فيها خلال الرحلة كلها .. وكانت مناقشاته بالذات رحبة الافق، عمادها الذكاء لا التعصب ...

وعندما هبطنا فى مطار طشقند ، محا الاستقبال العذب عنا كل ارهاق .. كان هناك رجال كثيرون يصافحوننا فى ود وحرارة ، وكانت هناك فتيات يحملن باقات الزهور ، وقد ارتدين الملابس الوطنية الجميلة : الطاقية المزركشة والثياب الزاهية المطبوعة باللونين الاحمر والاصفر فى نقوش شرقية صميمة، والشعر المرسل فى ضفيرتين طويلتين تصلان الى ما بين الصدر والخصر .. والابتسامات الواسعة التى تكشف عن أسنان أغلبها مغطى بالذهب !! ..

وكانت الفتاة التى قدمت لى باقتى من الزهر صورة من الجمال الازبكى : القد الصغير ، والوجه المستدير والعيون الوادعة .. وغمازتان تضيئان فى خديها اذا ضحكت ، وليس فى ثغرها سوى سنة واحدة من الذهب !..

ان أسمها « نورية اسماعيلوفنا » . وقد كنت أحسبها أول

الامر تلميذة فى المدرسة لصغر سنها ، ثم عرفت بعد ذلك أنها صحفية تعمل فى احدى مجلات طشقند ...

ولم يكن الفندق الذى نزلنا فيه فى طشقند فندقا بمعنى الكلمة. انه فيلا ريفية بضواحى المدينة ، ترقد فى قلب حديقة ولسعة ، ولم يكن ينزل بها سوى اعضاء الوفد الصحفى المصرى والمرافقين له ..

وطشقند هى عاصمة جمهورية أزبكستان .. احدى الجمهوريات الستة عشر التى يتكون منها الاتحاد السوفيتى .

ونحن الآن فى آسيا .. فالوجوه كلها آسيوية .. البشرة سمراء والعيون ضيقة كعيون الصينيين ، والنساء فى الريف يرسمن خطا يصل بين الحاجبين فيجعلهما حاجبا واحدا ، والشعر ناعم مرسل يضفرونه أحيانا فى عدد كبير من الضفائر ، الامر الذى جعل شعرنا المجعد نحن المصريين يبدو فى عيونهم آية فى الجمال !!..

والناس هنا هم سلالة التتر ، الذين نشروا الرعب فى العالم كله ذات يوم وفوق أرضهم مرت جيوش أعتى الغزاة فى الزمان القديم كالاسكندر الاكبر ، وجنكيز خان ، ومن بلادهم خرج تيمور لنك كالعاصفة ليمحو المدن والاقطار ، ثم ليعود بعد أن تتبدد العاصفة ويدفن فى قبره الذى ما زال موجودا الى الآن .

ومع ذلك .. فاننا لم نشعر بالود والالفة كما شعرنا ونحن بين هؤلاء التتر !!.

ولقد كان فى بلادهم الكثير مما ذكرنا ببلادنا ...

كانت هناك الاحياء التى تذكرنا بعواصم الاقاليم فى مصر .. بيوت الطين ، والدكاكين الصغيرة ، والاطفال الذين يلعبون فى التراب ...

وكانت هناك اسماء أحمد ومحمد ونور الدين وغيرها من الاسماء العربية تتردد بكثرة ... فهذه البلاد كما عرفت الاسكندر الاكبر وجنكيز خان ، فقد عرفت الفتح الاسلامى ، وما تزال فيها مدن كانت عواصم الحضارة الاسلامية ذات يوم .. مثل سمرقند ، وبخارى وخوارزم ، ومن مدنها هذه خرج فلاسفة وعلماء..ما زالوا يلمعون بين أذكى ما أخرجت الحضارة الاسلامية من عقول .. فمن بخارى خرج ابن سينا .. الفيلسوف الذى احتفل العالم كله بمرور الف عام على مولده منذ سنة ..

ومن خوارزم خرج « البيرونى » صاحب الرحلات التى وضع مؤلفات كبيرة عنها ، وخرج « محمد بن موسى الخوارزمى » أول من وضع المعادلات الجبرية فى العالم ، وقد وضعها باللغة العربية ، ومن بخارى خرج « أدموغ بك » حفيد تيمور لنك ، الذى كان أول من وضع حسابا للنجوم وحدد أماكنها بدقة ، والذى ما زال علماء الغرب ينقلون عنه الى اليوم ، والذى جعل علم الفلك علما عربى المولد ...

ومن أجل ذلك .. فان اللغة الازبكستانية نفسها ما زالت تحمل الكثير جدا من الكلمات العربية .. فأنت تسمع فى كلامهم كلمات « حقيقة » و« قطعا » و« ظالم » و« مظلوم » و«مدرسة» وهم حريصون على الاحتفاظ بهذا التراث الاسلامى القديم..

ففى طشقند مثلا معهد كبير للدراسات الشرقية ، ومديرة هذا المعهد امرأة اسمها « صباحه » ، وهو يهتم بالدراسات الشرقة ويحتوى على آكثر من ١٥ الف مجلد ، وفيه المترجمون الذين يترجمون الآثار العربية الحديثة ...

وفى سمرقند وبخارى وغيرهما يجرى العمل بهمة فى ترميم المساجد الاثرية الجميلة ..

وليس معنى هذا ان الناس فى أزبكستان .. مؤمنون !!..
فالواقع انهم مسلمون بالاصل فحسب ، ولكنهم أو اغلبيتهم الساحقة على الاقل غير مؤمنين ..

وهذا وضع سائد فى الاتحاد السوفيتى كله ...

ففى روسيا كل شىء تابع للدولة ما عدا الدين !!

المرأة التى تدفع عربة اليد فى الطريق وتبيع المثلجات للمارة ، تابعة فى عملها هذا للدولة .. أما الدين فانه غير تابع للدولة ...

« الدولة » فى الاتحاد السوفيتى لا تؤمن بالدين ، ولكنها لا تحاربه .. فهى تتركه لنفسه ، يذبل أو يزدهر .

هى لا تؤمن بالدين ، فهى لا تعطى تعليما دينيا فى المدارس ، وهى لا تنفق على بناء المساجد والكنائس أو ترميمها ، ولا تدفع مرتبات لائمتها ومؤذنيها وقساوستها .. واذا رممت مسجدا أو كنيسة فانما ترممه كأثر تاريخى ، كما نرمم نحن معبدا فرعونيا مثلا ، فلا يحمل ترميمه أى معنى دينى ..

وهذا الوضع يشمل جميع الاديان .

أما المسلمون فان المؤمنين منهم قد كونوا هيئة تسمى الادارة الدينية ، يبلغ ايرادها حوالى مليون روبل كل سنة ، وتتولى الانفاق على مسجد فى موسكو وآخر فى طشقند قمنا بزيارتهما وعلى غيرهما من المساجد ومع ذلك فقد كان المسجد الذى زرناه فى طشقند بالغ القذارة ، خصوصا دورة المياه الملحقة به ، وكان كل «المشايخ» الذين رأيناهم هناك يحملون طابع التأخر والتخلف.

وتتولى الهيئة الانفاق على مدرسة تعليم الدينى فى بخارى، وسوف ترسل هذه الهيئة ثلاثة من خريجى مدرسة بخارى فى العام القادم ليتمموا دراساتهم الدينية فى الازهر ...

وهم يحيون التراث القديم أيضا، وينمون شخصيتهم التاريخية بترجمة الكتب القديمة كألف ليلة وليلة ، وبالتمسك بالطراز الشرقى ـ الارابيسك ـ فى البناء .. يطورونه ويجددون فيه مع الاحتفاظ بكل ملامحه الاساسية القديمة ...

وأزبكستان كلها تعيش فى ذكرى شاعر كبير مات منذ مئات السنين .. هو « على شيرنواى » يطلقون اسمه على الشوارع والميادين والمسارح ، وعلى المكتبة الكبرى فى المدينة ، ويقيمون له التماثيل ويؤلفون عنه المسرحيات .. والسبب ان « على شيرنواى » كان أول من استعمل اللغة الازبكستانية فى الكتابة الادبية ، بعد أن كانت تعد لغة عامية فحسب وبها كتب مسرحيات مثل « مجنون ليلى » و « فرحات وشيرين » ...

وريف ازبكستان تملؤه المزارع الجماعية التى تنتج القطن الملون ، ومدنها تدوى فيها المصانع التى تصنع هذا القطن ، وعواصمها تضم الآن ثلاث جامعات حديثة ، وعشرات من المعاهد العلمية . ونساؤها اللواتى يلبسن الملابس الوطنية الزاهية ، ويرسلن الضفائر على الصدور ، قد تحررن حتى أصبح ٩٥٪ من اطباء الجمهورية من النساء ، ولعلها أن تكون أعلى نسبة للنساء فى العالم ، وأصبح ٤٪ واصبحت نائبة رئيس الوزراء امرأة !!..

وقد قضينا يوما كاملا فى مزرعة « كاجانوفتش » الجماعية القريبة من طشقند ، تصورنا خلاله اننا فى الريف المصرى ..

فالنساء يستقبلن الضيوف من النساء بالاحضان والقبلات على الخدود ، والبيت الريفي في فنائه « الكانون » وفي احدى حجراته صندوق الثياب المزركش ، ومائدة الطعام عليها البيض والدجاج والفطير المشلتت وعسل النحل .. فلا تزيد عن المائدة « الفلاحي » في مصر الا بزجاجات الفودكا والنبيذ والانخاب التي لا تحصى !

وقد تناولنا الغداء على مائدة رئيس المزرعة ، واسمه « حمراقول » ...

وحمراقول هذا انسان طريف حقا . ضخم الجثة ، حليق الرأس منفوش الشوارب ، يلبس بذلة من الكتان تشبه ثياب الجنرالات العسكريين ، ويضع على صدره مجموعة من الاوسمة والنياشين ، نالها بسبب تفوقه في العمل والانتاج ..

وعلى مائدة الطعام كان يلح علينا في الاكل حتى نهضنا عن المائدة ونحن لا نكاد نقوى على الوقوف . وبعد أن استرحنا ساعة واحدة فوجئنا بأن المائدة قد نصبت مرة أخرى في الشرفة الجميلة بين الحقول ، وبأننا لا بد أن نأكل مرة أخرى من الاصناف التي لم تقدم لنا بعد .. وفي مقدمتها أرز بخاري الدسم اللذيذ !!..

وكان رفض الطعام معناه اهانة حمراقول !

وعدنا الى المائدة متثاقلين !

ولم يكتف حمراقول بهذا ، بل أصر على أن يهدينا مجموعة من الطواقي الوطنية المزركشة ، أخذ يضعها على رؤوسنا واحدا واحدا ، كأننا في حفلة تتويج ، بين تصفيق الحاضرين !!..

والريف في ازبكستان أقل في مستوى معيشته من ريف اوكرانيا ، ولكنه اكثر طرافة ومرحا !

فالفلاحة ترتدي سروالا واسعا طويلا ، ويغلق على الساق عند القدم، وفوقه فستان الى الركبتين فقط، وفوق الفستان «صديرى» زاهى اللون ، وعلى الرأس طاقية صغيرة منقوشة بالخرز الملون .

وفى مزرعة كاجانوفتش محطة اذاعة صغيرة تذيع الاسطوانات على بيوت الفلاحين ، وفيها مسرح صغير ، ومن بين الفلاحين والفلاحات توجد فرق موسيقية وغنائية . وللفلاحين والفلاحات رقصات جماعية شعبية جميلة !!.

ومضت ايامنا الاربعة فى طشقند .. وعندما سافرنا تركنا فيها عددا من الاصدقاء لم نتركه فى أى مدينة أخرى .

تركنا « رخصة الله شاه » المهذب الخجول الذى كان بين المستقبلين والذى قضينا اليوم الاول نسأل عن حقائبنا فيحملها معنا ، ونطلب منه ماء باردا فيحضره لنا .. ثم اكتشفنا فى آخر الليل أنه نائب وزير الخارجية ...

وتركنا «مدحت بولاطوف» مهندس المدينة القصير المتحمس، الذى كان يشرح لنا الفن الازبكى والطابع الازبكى فى أسلوب عال من السياسة والادب والفلسفة ، والذى كان يناقش المدارس الفنية فى العمارة والبناء وكأن هذه المدارس الفنية كائنات حية تتبارز فى معركة باسلة ..

وتركنا « زياد ايسنبايف » مدير وكالة أنباء أزبكستان ، القصير البدين ، الذى كان محور المرح فى الزيارة كلها ، والذى توثقت بينى وبينه الصداقة ، رغم أن كلا منا لا يتكلم لغة الآخر، حتى عرض على أن ابقى فى أزبكستان .. أعمل فى وكالة الانباء التى يديرها ، وأتزوج فتاة من التتر !

مصيف ستالين

أمامنا أربعة عشر ساعة أخرى من الطيران،فى الليل هذه المرة.
فالطائرة التى ركبناها من طشقند فى الساعة الثانية عشرة ليلا، سوف تصل بنا الى سوتشى فى اليوم التالى ، الساعة الثانية بعد الظهر ...

هل ننام فى الطائرة ، حتى يطلع الصبح ؟

كلا . ففى كل ساعتين أو ثلاث تهبط الطائرة فى مطار، وفى كل مطار وفد من الصحفيين المحليين يستقبلنا، ومائدة منصوبة، وانخاب.

واضطردت الرحلة على هذا النحو : اغفاءة قصيرة لمدة ساعة أو تزيد ، ثم مطار نهبط فيه ، ومائدة نجلس اليها ، وانخاب نشربها ، ثم اغفاءة قصيرة لمدة ساعة أو تزيد ...

حدث هذا فى الساعة الثالثة ليلا، والساعة الخامسة عند الفجر، والساعة الثامنة ، وهكذا حتى وصلنا الى سوتشى ...

وكان المطار الذى تناولنا فيه طعام الافطار هو مطار تبليسى، عاصمة جورجيا ...

جورجيا موطن ستالين ، وموطن البترول أيضا .

وعندما نظرت من نافذة الطائرة وهى تهبط فى هذا المطار، رأيته فى جانب غابة هائلة من هياكل الصلب التى تقام فوق آبار البترول، وفى جانب آخر مساحة هائلة تغطيها الطائرات الحربية للحراسة .. طائرات لا آخر لها، كأنها جراد جاثم على الارض، أو كأن الصحراء هنا مفروشة ببساط من النقش الرقيق !..

وكنا قد سمعنا خلال الرحلة ان جورجيا هى موطن الجمال فى الاتحاد السوفيتى ، وكان الدليل ينتظرنا فى المطار ، ويجلس معنا الى مائدة الافطار .. فتيات من معهد الصحافة بجامعة جورجيا.. فيهن مزيج باهر من الجمال الشركسى والتركى ...

وبعد مائدة الافطار ، عدنا الى الطائرة لتذهب بنا الى سوتشى.

ان سوتشى هى مصيف ستالين !.. ولعلها ان تكون أجمل بقعة فى الاتحاد السوفيتى كله ...

بلدة صغيرة للراحة والنزهة والاستشفاء ، كلها جبال ووهاد تكسوها الخضرة ، وتنتشر بينها بيوت صغيرة بيضاء ، تتدرج على السفح الذى ينتهى الى مياه البحر الاسود الهادئة .. فاذا نظرت الى البلدة من البحر بدت كأنها شجرة هائلة قد عششت عليها طيور بيضاء ، واذا جاء الليل ، وانبعثت الانوار من البيوت الصغيرة بدت كشجرة عيد الميلاد المثقلة بالانوار !..

وليس عماد سوتشى البيوت الصغيرة التى يملكها الافراد القادرون فحسب . انما هى تحتوى على عدد ضخم من (المصحات) الفاخرة ... كل نقابة عمال كبيرة أو كل وزارة لها مصحة خاصة بها ، يصيف فيها عمالها وموظفوها، على نفقتهم، وعلى نفقة الدولة للمتفوقين فى الانتاج منهم ...

والى جانب هذه المصحات الفاخرة توجد مراكز علاج ضخمة تعالج من كل الامراض الممكن تصورها ...

والشيء الذي يلفت النظر فى هذه « المصحات » ـ وقد نزلنا فى احداها ـ هو فخامتها البالغـة . والاسراف الغـريب الذي بنيت به . انها لم تبن على الطراز الانيق البسيط الذي تجده فى ستوكهلم مثلا ، ولكنها بنيت ببذخ القصور التاريخية العريقة .. الاعمدة الضخمة المتوالية ، والسلالم الفسيحة ، والنافورات ...

وكنت أقول للمرافقين ان تكاليف بناء مصحة واحدة يكفى لبناء مصحتين على الاقل ...

اما الشاطيء نفسه ـ أو البلاج ـ فمهمل تقريبا . الشاطيء نفسه ليس رمليا كشواطيء مصر ، انما من «الزلط» الناعم المستدير .

و « البـلاج » ليس فيه كبائن للافراد أو للناس جميعـا ، يستطيعون ان يغيروا فيها ثيابهم ..! بل ان كل بلاج منقسم الى قسمين : قسم للرجال وقسم للنساء ، وفى كل قسم ، يخلع الرجال أو النسـاء جميعا ثيابهم فى العراء أمام الشـاطيء ، ويلبسـون المايوهات ...

وأغلب البارزين من كبار رجال الدولة وكبار الموظفين والفنانين يملكون « داتشات » أى « فيلات » فى سوتشى ، أو فى غيرها من المصايف ، أما مصيف ستالين فليس فى البلدة نفسها .. انما هو على بعد ١٢٠ كيلو مترا ، وعلى ارتفاع اكثر من الف قـدم فوق سطح البحر ...

كان اليومان اللذين قضيناهما فى سوتشى كالحلم ، كانا راحة واستجماما من الرحلة الطويلة الحافلة ...

ستالينجراد

لم أنس ، ولا أظن أحدا قد نسى ، تلك الايام ...

عندما كانت الحرب العالميـة الاخيرة فى ذروتهـا ، والنصر والهزيمة معلقان بخيط رفيع ، وقوات النازى كأنها القدر توجه فى الشرق والغرب ضربات قاصمة ، ولا شىء يردها على الاطلاق..

ووصل المد الى ستالينجراد ...

وتعلقت أنفاس العالم كله بهذه المدينة ...

ومضت الايام ، والشهور ، ومضت سـنة كاملة .. والناس يصحون من نومهم فى الصبـاح الباكر ليقرأوا فى الصحف اخبـار ستالينجراد ... لقد سقط بيت ، احتل الالمان حجرة ، استرد الروس شارعا ... كان واضحا ان مصير الحرب كلها ، ومصير العالم لسنوات طويلة مقبلة ، سوف يتقرر فى هذه المدينـة ...

واقتربت ارهب معركة عرفتها هذه الحرب من نهايتها.. وبقى فى المدينة كلها بيت واحد تقريبا ، كان تحته مخبأ أرضى يتخـذه القائد الالمانى فون باولوس مقرا لقيادته ...

وانطبقت الكماشة الهائلة على فون باولوس، فخرج مستسلما لشلة من الجنود ، مازالت صورتهم معلقة فى متاحف ستالينجراد الى الآن ...

ودرجت بنا الطائرة على أرض الاسطورة ...

ان المدينة مازالت تلعق جراحها .. لقد تم اقامة المبانى الرئيسية فى قلب المدينة ، ولكنها مبان روعى فى اقامتها التقشف ، فالفندق الرئيسى مثلا بسيط مرتجل ليس فى مستوى سائر الفنادق التى نزلنا فيها ، وعند اطراف المدينة رأيت النساء يحملن صفائح الماء الى بيوتهن ، والبيوت نفسها ملفقة من الخشب والصفيح ...

ولكن المسرح الكبير قد تم بناؤه !

وفوق نهر الفولجا ، قرب المدينة ، تقام محطة جديدة هائلة لتوليد الكهرباء ...

و « حدائق الكومسومول » التى يجلس فى ظلالها العشاق تطوع التلاميذ بالعمل فى غرسها وبناءها ، وكل شجرة تحمل اسم من قام بغرسها ...

ومصنع الجرارات الضخم قد حقق اكثر من معدل انتاجه القديم ، فهو يخرج ٧٥ جرارا زراعيا فى اليوم ...

هذا هو منطق الانتاج فى الاتحاد السوفيتى ...

محطة توليد الكهرباء ، ومصنع الجرارات ، والمسرح الكبير ، قبل أن تتوفر البيوت الخاصة الكافية والمحلات الانيقة .

وقد لفت نظرى ، وانا اسير فى شوارع المدينة ليلا منظر تلميذات صغيرات يسرن فى جماعات ، ومعهن حقائب الكتب ..

وسألت فى ذلك ، فقيل لى: ان الحرب التى دمرت المدينة كلها بغير استثناء ، قد دمرت المدارس ، والعدد الذى بنى من المدارس حتى الآن ليس بكاف ، فماذا يصنعون ؟.. ان التلاميذ والتلميذات يذهبن الى المدارس فى ثلاث نوبات ، تتوالى من الصباح حتى

الليل ، فتستوعب المدرسة الواحدة ثلاثة امثال طاقتها ...

وهم هنا لا يريدون ان ينسوا ذكريات الحرب الاليمة ...

ان كل شيء فى المدينة يروى شيئا منها ...

لا يخلو شارع أو ميدان او حديقة من تمثال أو نصب أو دبابة أو قبر ، يرمز الى شهيد باسل أو الى معركة حاسمة أو الى عمل بطولى خارق ...

فوق تل (ممايف) الذى قرر مصير المعركة دبابة تذكارية فوق قاعدة تشرف على المدينة ...

وفى حدائق الكومسومول تمثال للطيار لفريموف الذي اسقط ٣٠ طائرة المانية فوق سماء ستالينجراد ...

وقرب شاطىء النهر ، « بيت بافلوف » قائم بعد ترميمه . انه بيت دافع عنه الجاويش بافلوف وأحد عشر جنديا طول مدة معركة ستالينجراد . كان هذا المبنى هو الوحيد الذى لم يسقط فى يد الالمان مرة واحدة طوال المعركة، فاطلق عليه اسم « بيت بافلوف » وقد عاش بافلوف ، وهو الآن يعيش فى بلدة صغيرة فى الشمال قرب موطنه الاصلى ، لينتجراد ، ويأتى الى ستالينجراد فى المناسبات الرسمية فيستقبلونه استقبال الابطال ...

وفى « متحف الدفاع » وضعوا كل ذكريات المدينة عن الحربين: حرب التدخل سنة ١٩١٨ والحرب العالمية الاخيرة ...

وفى قاعة كبيرة وضعت الهدايا التى تلقتها مدينة ستالينجراد من مختلف انحاء العالم يوم احرزت النصر . هدايا من ماوتسى تونج وشواين لاى وجورج السادس وروزفلت ...

وبعد اربعة ايام فى ستالينجراد ، عدنا الى موسكو .

قلت للسيدة ناديزدا بارفلوفنا ، رئيسة الاتحاد النسائى الوحيد فى روسيا :

ــ فى مصر ، تخصص أكثر المجلات صفحة تحل فيها مشاكل القراء العاطفيــة فهل تحتوى المجلة التى يصدرها اتحــادكم على صفحة من هذا النوع ؟..

والسيدة ناديزدا سيدة مرحة جدا، لا يخلو أى رد لها من تعليق ساخر أو نكتة .. ولكنها فى هذه المرة تجهمت وقالت لى :

ــ اننى أعرف ما وراء سؤالك !!.. ان الدعـاية فى الخارج تقول عنا أننا قد تحولنا الى آلات لا تعرف الحب ، وأن القلوب هنا ممنوعة من أن تخفق بحكم القوانين ، وأن شـيوعية الزواج منتشرة بيننا .. فالعلاقة بين الرجال والنساء علاقة حيوانية ليس فيها وجد ، وهجر وهوى !!..

ولم أكن فى الواقع أخفى وراء سؤالى كل هــذه المعانى .. ولكنى أردت أن أمعن فى اثارتها .. فقلت :

ــ ولكنى أرى على الاقل أن النســاء هنا غير مهتمات باثارة اهتمام الرجال .. فأنا لا أرى الاحمر والابيض على الوجـوه ،

ولا التأنق فى الثياب، ولا أرى واحدة تهتم بعمل (رجيم) للمحافظة على رشاقتها ..

وقالت السيدة ناديزدا :

ــ اننا هنا نفضل الجمال الطبيعى على الجمال المصنوع !!.

قلت لها :

ــ ولكن هذا ضد فلسفة بلادكم .. ان الفلسفة الماركسية لا تستسلم للطبيعة . انها تعرفها لكى تعمل على تغييرها.. فلماذا لا تعتنق نساؤكم أيضا هذه الفلسفه ؟!!.

وهنا فقط ادركت السـيدة ناديزدا اننى أداعبها .. فأخذت تضحك وقالت :

ــ الحقيقة ان هذه الاشياء ظلت مهملة عندنا بعض الوقت ، ولكننا الآن نطالب بتحسين أنواع الزينة والملابس ومجلتنا اصبحت تنشر الموديلات الحديثة للثياب وقد اقيمت عندنا حفلات لعرض الأزياء .. فنحن يا سيدى نعرف الحب كالآخرين تماما، واذا كنت لا تصدق فسوف أنشر صورتك جالسا مع هذه الآنسة ، وسوف ترى ماذا يفعل خطيبها الغيور بك !!.

ولم أكن فى حاجة الى هذا التأكيد الاخير .. فالحب منتشر فى الاتحاد السوفيتى بالفعل !.

ويكفى أن تسير يوما ساعة الغروب فى شارع جوركى لترى الشباب والشابات يتبادلون المعانقة ، وأن تصل مع الليل الى ميدان بوشكين لترى الذين صادت شباكهم يجلسون فى الحديقة المحيطة بتمثال الشاعر الكبير .

وحديقة ستالينجراد الكبيرة ، كانت تمتلىء طول الليل بخلقات

الرقص على أنغام الاوكورديون وموائد البنج بونج وضجة الصواريخ .. أما أطراف الحديقة المظلمة فلا تسمع فيها الا التنهدات .. تماما مثل التويلرى فى باريس .. وهايد بارك فى لندن ، وشواطىء البحيرات فى ستوكهلم !!.

غير أنك لا تجد واحدة تبيع الهوى أبدا ..

ولكن هذا الحب الذى رايناه فى الحدائق والشوارع ماغايته؟

واذا كانت غايته أن تنشأ أسرة .. فكيف يتم الزواج هناك ؟

عندما هبت الثورة فى روسيا ، لم تكن تريد أن تقتلع النظام الاقتصادى القائم وعلاقات الانتاج القديمة فحسب بل كانت رياحها مليئة بالحملة على نظام الاسرة « البورجوازية » أيضا ..

ولم يكن قادة هذه الثورة يعرفون بالضبط ما يجب أن يصنعوه .. كانت أمامهم فقط مقالات وابحاث كتبها أنبياء الثورة ومفكروها فى مسائل الاسرة والعلاقات الجنسية والزواج .

كانت هناك مثلا مقالات كتبها كارل ماركس ، عندما كان هو نفسه فى فترة الخطوبة تحدث فيها عن الزواج والطلاق وكان من رأيه أن ظهور نظام الملكية الفردية قد خلق فى نفس الرجل شعورا بالتملك ، الامر الذى أدى الى جعل المرأة عبدة للرجل ، وجعل الرجل يعامل المرأة على أنها بعض ممتلكاته .. وهى علاقة مهينة لا تليق بكرامة الكائن البشرى .. وكان من رأيه تبعا لذلك أن القضاء على الملكية الفردية وتحقيق المساواة سوف يلغى فى نفس الوقت هذا الوضع المهين للمرأة ويجعل علاقة الزواج أكثر انسانية.

وهاجم كارل ماركس فى نفس الوقت المجانين الذين كانوا ينادون بشيوعية الحب ، وهاجم انجلز تعدد الزيجات .. وقال ان

وجود الدعارة معناه تعدد النساء للرجل الواحد ، وأن القضاء على الدعارة قضاء تاما ، وتحرير المرأة من عبوديتها للرجل ، هو الذى يجعل الزواج علاقة صادقه لا يلهمها سوى الحب ...

وكان لينين أكثر الجميع تزمتا.. فاعترض على حرية العلاقات الجنسية ، وعلى الرأى القائل بعدم تدخل الدولة فيها ، واعتبر شيوعها مظهرا من مظاهر تحلل المجتمع الرأسمالى .. وقال لينين :

ـ ان الحب ليس عملافرديا لا يهم سوى صاحبه كشرب كوب من الماء ، ولكنه عمل يهم طرفين اثنين ، ثم انه يهم طرفا ثالثا ، هو ثمرة هذا الحب .. ومن هنا تبرز مصلحة المجتمع فى تنظيم هذه العلاقة ..

والظاهر أن لينين كان متشددا فى هذه الناحية بالفعل .. فان القوانين التى صدرت فى حياته كانت لا تعترف بأى علاقة بين الرجل والمرأة الا اذا كانت زواجا مسجلا .. فلما مات لينين انتصرت الآراء الداعية الى حرية الحب والزواج ، ولخصت السيدة «الكسندرا كولوتناى» التى أصبحت بعد ذلك سفيرة لروسيا فى ستوكهلم هذه الآراء فدعت الى أن يكون الزواج «علاقة بين اثنين كل منهما حر ، كل منهما مستقل ، كل منهما يعمل» !! ..

وتحقيقا لهذه الاراء الداعية الى حرية الحب .. صدر فى سنة ١٩٢٧ قانون جرىء ساوى بين الزواج الرسمى والزواج الواقعى !!..

وطبقا لهذا القانون لم يعد من الضرورى أن يسجل الرجل زواجه من المرأة التى يحبها .. يكفى أن يصطحبها معه الى البيت ويعيش معها لكى تصبح زوجته فى نظر الناس والمجتمع والدولة

•• فاذا أرادا أن ينفصلا فلا داعى لاى اجراءات قانونية للطلاق ••
يكفى أن يفترقا لكى يصبحا طليقين •• واذا كان الزواج مسجلا
فيكفى أن يذهب أحد الطرفين الى مكتب التسجيل ويعلن انه
يريد أن ينفصل •• وبذلك ينتهى الزواج !••

اما التسجيل ، فهو اختيارى لمن يشاء ، ولا قيمة له الا انه
مجرد اثبات لوجود الزواج ••

وليس التسجيل هو وسيلة الاثبات الوحيدة المقبولة •• فان
قيام حالة الزواج يمكن اثباتها ، اذا فرض واختلف الزوجان أو
انكر أحد الزوجين ، بأى قرينة أخرى •• كرسالة مثلا ، أو شهود،
أو أى دليل يثبت أن الطرفين كانا يسكنان معا !!•

ولم يعد هناك طبقا لهذا القانون ابناء شرعيون وابناء غير
شرعيين •• فالبنوة ليست مرهونة بعقد الزواج ، وما دام المولود
من صلب فلان فهو ابنه امام المجتمع وامام القانون !!•

الى هذا الحد البعيد •• أصبح الزواج شيئا خاصا بالرجل
والمرأة فقط •• وعلاقته لا دخل للمجتمع ولا للدولة فيها ••
وأصبحت اجراءات الزواج والطلاق سهله للغاية •• بل أصبح
الزواج والطلاق بغير اجراءات على الاطلاق •• فمجرد معاشرة
الرجل للمرأة زواج ، ومجرد انفصالهما طلاق !!•

ليس لاحد الطرفين قبل الاخر أى حق فى أن يبقيه معه رغم
ارادته ، أو أن يبقى معه يوما واحدا بغير رغبته ••

وكان وزير العدل الروسى «كورسكيج» يتباهى بذلك قائلا :
ـ أن حق الطلاق من الحقوق التى قامت من أجلها ثورة
أكتوبر !!•

وحتى فى خلال قيام الزوجية •• أراد هذا التشريع أن يحرر الزوجة من كل قيد •• فقرر أن الزوجة ليست ملزمه بأن تحمل اسم زوجها ، وأنها ليست ملزمة بأن تتبعه الى الجهة التي يذهب اليها ، وأنه اذا غير جنسيته •• فجنسيتها لا تتغير تبعا له •• بل لها أن تحتفظ بأى جنسية تشاء •••

صدر هذا القانون العجيب •• ولم يقدر الذين أصدروه عواقبه •••

نعم •• لقد حرر هذا القانون المرأة تماما • وجعلها مساوية للرجل من جميع الوجوه •• وأدى هذا الى انطلاق نصف المجتمع الذى كان حبيسا فى قمقم من الاوضاع البالية •••

نعم •• لقد شاركت المرأة فى الحياة العامة هناك مشاركة لم تتحقق لها فى أى مكان آخر بعد ، حتى أصبحت روسيا ـ بحق ـ مملكة النساء !••

ان ٥١٪ من حملة الشهادات العالية •• نساء •••

وفى مجلس السوفيت الاعلى ٣٤٦ عضوا من النساء ••

وقد رأيت هناك نساء يعملن وزيرات ومديرات للمصانع •

وليس عارا أن تعمل المرأة هناك مهما كان مركز زوجها ، ومهما كان نوع عملها •• فزوجة بولجانين تدرس اللغة الانجليزية فى أحد المعاهد ، وزوجة مالينكوف تدير معهدا عاليا ، وزوجة فورشيلوف تدير متحفا ، وزوجة مولوتوف تعمل فى مصنع ثياب .

والسائق الخاص لسيارة السفير المصرى فى موسكو ، زوجته طبيبة •• والرجل الذى رأيته يعمل فى تبييض السفارة المصرية

هناك يوما ، زوجته أيضا طبيبة .. وفى المصانع والمبانى ، وفى كل شىء تعمل المراة كل عمل يقوم به الرجل باستثناء شيئين : صهر الصلب .. والمناجم تحت الارض !!.

وليس بعيدا على الاطلاق ان تزحف الى أكبر المناصب هناك امرأة ، وان تجلس فى الكرملين امراة .. فالنساء هناك يتمسكن بكلمة قالها لينين هى :

« المرأة التى تعرف كيف تكون ربة بيت ، لا بد تعرف أيضا كيف تحكم دوله » !..

والدوله تزيح عن كاهل المرأة أكبر عبء كان يرغمها على البقاء فى البيت وهو تربيه الاطفال بدور الحضانة الكثيرة التى تستوعب الجميع ...

ولكن ...

ماذا كان أثر القانون العجيب فى الاخلاق ، وفى كيان الأسرة التى سوف تظل على الدوام الخلية الاساسية للمجتمع ؟..

لم تكد تمضى على صدور هذا القانون سنوات ، حتى بدت عواقبه الوخيمة .

ان هذه الحريات الجديدة على الرجال والنساء ، قد أسيىء استغلالها ...

أصبح الزواج والطلاق بالفعل .. كشرب كوبة من الماء ... واختفى عنصر المسئولية من محيط الاسرة .. فما دام الزواج بلا التزام والطلاق بلا ثمن ، والاولاد على أية حال فى رعاية الدولة ، فلماذا الاهتمام بكيان الاسرة ؟ !! ..

وبدأت الارقام تدل على هذا الاتجاه الخطير ...

ففى سنة ١٩٣٣ وصل عدد حالات هجر الاولاد التى عرضت على المحاكم فى روسيا البيضاء وحـدها الى ١٤٢ ألف حالة !!.. وفى العام التالى وصل الرقم الى ٢٠٠ ألف ، وفى جمهورية اوكرانيا وحدها وصل عدد الحالات الى ٦٦,٠٠٠ فى سنة ١٩٣٥ ، ثم الى ١٥٦ ألف فى سنة ١٩٣٧ !!.. أى أن الرقم كان يتضاعف مرة كل سنتين ...

تفاقم الامر اذا .. واصبح الحب الحر ، بلا مسئولية ، ظاهرة خطيرة ...

وساعد على تفاقم الحالة أن الاجهاض كان مباحـا .. فحتى مسئولية انجاب الاولاد لا وجـود لها ما دام فى امكان الرجـل والمرأة أن يتخلصا من ثمرة الحب وهى جنين ...

وبدأ كثير من الناس يتذمرون ..

وحاول القادة اصلاح الامر بالقصص والمقالات .. فبدأت الصحف والكتب تتحدث عن الاسرة ، وعن جمال الحياة العائلية ، وعن (سعادة الامومة) ، و (مجد الابوة) ...

ولكن ذلك كله لم يؤت ثمرة تذكر ، وفى سنة ١٩٣٥ وصل الطلاق الى نسبة ٤٤٪ من حالات الزواج .. الزواج المسـجل فقط !..

وأصبح لا مفر من مواجهة الحقيقة ، والنظر فى تغيير هـذا الوضع ...

واعلنت الحكومة سنة ١٩٣٦ فتح باب المناقشة العامة فى هذا القانون الذى ينظم الحياة الاجتماعية ، واظهرت المناقشـات أن الناس يريدون العودة الى الاوضاع التقليدية : حيث يقترن الحب

بالمسئولية ، وحيث توضع الحدود والقيود للزواج والطلاق ..

ومنذ سنة ١٩٣٦ ، بدأت تصدر سلسلة من التشريعات ، لم تتم الا فى سنة ١٩٤٤ ، كان كل تشريع منها يرجع الى الاوضاع التقليدية .. حتى أصبح الطلاق مثلا فى روسيا الان ، أصعب منه فى أى بلد آخر ...

لقد أصبح تسجيل الزواج أمرا ضروريا ، فالدولة والمجتمع لا يعترفان بزواج غير مسجل ...

أما الطلاق .. فقد أصبح ممنوعا أن يتم بارادة أحد الطرفين فقط .. وحتى اذا اتفق الطرفان على الطلاق ، فيجب أن يعرض الامر على محكمتين : المحكمة الاولى تحاول حل المشاكل القائمة بين الزوجين .. فاذا استعصى الحل انتقل الامر الى المحكمة الثانية التى تحكم بالطلاق ، وتقرر أى الابوين يرعى الابناء ، وسائر المسائل المالية المتخلفة عن الطلاق ...

والطلاق الآن له رسوم باهظة .. تصل الى ٢٠٠٠ روبل !!.

أما الاجهاض .. فقد أصبح جريمة .. ولا يباح الاجهاض الا فى حالتين : اذا كان الحمل خطرا على صحة الام ، واذا كانت الام مصابة بمرض وراثى يخشى من انتقاله الى الابن ...

بل أن الدولة الآن خصوصا منذ نهاية الحرب تشجع النسل.. فتفرض ضريبة لا على الاعزب فقط ، ولكن على المتزوج الذى ليس لديه أولاد .. وعلى المتزوج الذى ليس لديه سوى ولد واحد أيضا !!. وفى مقابل ذلك فان الدولة تدفع مساعدات للام ذات الاولاد الكثيرين ، وتخصص جوائز كبيرة للامهات ، ولديهم وسام اسمه وسام (الام البطلة) ...

وهكذا.. استوى وضع العائلة فى روسيا على صورة لا تختلف كثيرا عن صورتها فى البلاد الاخرى المتقدمة ..

المرأة مساوية للرجل تماما فى الحقوق ومن حق كل منهما أن يختـار شريك حيـاته بملء حريته ، ولكن كل منهما مسئول مسئولية متعادلة أيضا عن الاسرة التى اتفقا على تكوينها.. فليس من حقهما أن يهدما بناءها لنزوة ، أو شهوة ، وليس من واجب المجتمع أن يسهل لهما الانفصال اذا كانت دوافعه طارئة يمكن أن تزول ...

والقوانين هناك لا تحدد الاسباب التى تحكم المحاكم من أجلها بالطلاق ، ولكن المحكمة العليا هناك وجهت الى القضاة ما يشبه «النصائح» فنصحتهم بأن لا يحكموا بالطلاق بسبب أى خلاف — يمكن أن يعالج ويزول .. انما يجب أن يقتصر الحكم بالطلاق اذا كان استمرار الزواج سوف يدفع أحد الطرفين الى الفساد ، أو الإنهيار ، أو سوف يجنى على تربية الابناء ...

فاذا كان الحب متعة وسعادة كبرى فيجب أن تقابله مسئولية، وهى مسئولية رفيعة جديرة بالاحترام ...

لينينجـــراد

لا يقيم التاريخ عادة فى مكان واحد ...

انه دائم الحـركة والتنقل !.. هناك أماكن يهملها تمامـا ، وأماكن يعبر بها فلا يترك فيها الا آثار أقدام ، وأماكن يقف عندها طويلا.. ويختارها لتكون ميدانا يدير فيه احدى معاركه الحاسمة!

وانا شديد الضعف ازاء التاريخ .. لا أرى فى المبـانى والآثار مجرد جدران عالية ، انما اتمثلها تنضح بكل تجارب البشر ، بكل مآسيهم وأفراحهم .. وأحب الاماكن الى ، الاماكن التى كانت مسرحا للدرامات التاريخية الهائلة .. سواء كانت صحراء الاهرام فى مصر ، أو السهل الذى وقع فيه الملك جون وثيقة الماجناكارتا فى انجلترا ، أم ساحة الباستيل فى باريس !..

وقد اختار التاريخ لينينجراد لاحدى هذه المعارك الحاسمة !!.

اختار التاريخ هذه المدينة التى تقـوم على أكثر من مائـة جزيرة ، تزحم نهر النيفا وهو يلتقى ببحر البلطيق .

وعلى جزيرة صغيرة ، تحمل اسـما رومانتيا ، هو « جزيـرة الارانب » وضع التاريخ حجر الاساس !!. أقام قلعة صغيرة ترابية اللون ، كانت حصنا ثم قصرا ثم سجنا لطلائع الشبان الثائرين ،

فسكن فى زنزاناتها مكسيم جوركى ، واوليانوف شـقيق لينين ، حتى ليلة تنفيذ حكم الاعدام فيه !!•

والاحساس الاول الذى شـعرت به عندما رأيت لينينجراد ، انها ليست مدينة روسية !!• لقد وصلنا اليها فى السـاعة الحادية عشرة صباحا ، بعد اكثر من عشر ساعات من الليل ، ظل فيها القطار يقطع هذه السهول الشاسعة بلا ملل ! •

وعندما خرجنا الى ميـدان المحطة ، كان الجو ثلجيـا قارس البرودة ، والسماء قد أطبقت عليها الغيوم !•

هذه اذا هى بوادر الشتاء الروسى الرهيب •• وكأننا قـد ذهبنا الى استقباله فى الشمال !•

وكانوا قد قالوا لى فى موسـكو انهم يسـمونها « باريس الصغيرة » •• اننى اتطلع من نافذة السيارة التى ركبتها من محطة السكة الحديد الى الفندق ، فلا أرى الطابع الروسى الذى عرفته فى موسكو ، وكييف ، وغيرهما •• ولا تطول دهشتى فالفتاة التى تشرح معالم المدينة تقول : هذا القصر بناه المهندس الايطالى فلان، وهذه الكنيسة بناها المهندس الفرنسى فلان•• لكأن الارستقراطية الروسية المترفة قد هاجرت من سهول روسيا المفتوحة على آسيا ، وجاءت الى هذه البقعة التى تطل على غرب اوربا المتحضرة لكى تعيش كما يعيش المتحضرون المترفون •• جاءت الارسـتقراطية الروسية الى هذه البقعة ، وأخذت تبنى قصورها حول قلعة جزيرة الارنب ، فهذه المنطقـة رغم برودة الشـمال ، الا أن الجغرافيين يقولون ان التيار الدافىء الذى يأتى من الاطلنطى الى البلطيق ، يصل اليها ، ويذيب ثلوجها ، ويجعلها ادفأ من موسكو ومن مثل

الداخل بكثير •• والبلطيق لا يحمل التيار الدافىء من الغرب فحسب ، ولكنه يحمل الحضارة ، وفنون الترف والوان الثراء•• فالاغنياء يسكنون هنا ، والقيصر يتخذ عاصمته هنا ؛ والمهندسون من فرنسا وايطاليا يأتون ليقيموا القصور والميادين على الطراز الاوروبى الحديث ، ويمعن بطرس الاكبر فى « التحضر » حتى يستصدر قانونا يرغم به الناس ــ اذا تركوا الريف ــ على أن يحلقوا لحاهم ، طبقا لآخر موضة فى لندن وباريس ، ومن يدخل لينينجراد ولحيته مرسلة فعليه ان يدفع ضريبة باهظة !

ولكن هذه المدينة التى تستورد كل شىء من الغرب، استوردت من الغرب شيئا آخر لم يخطر للارستقراطية على بال •• لقد استنشقت الماركسية أيضا•• ثم استوردتها ، واستوعبتها، ثم تبين ان التاريخ قد اختار هذه المدينة بالذات لتولد فيها أول دولة ماركسية فى العالم •

وهكذا، فى القصور الهائلة التى أقامها القياصرة لعشيقاتهم •• جرت أعجب حوادث التاريخ •• فى المخادع الحريرية اجتمع الثوريون ، وفى القاعات المذهبة التحم العمال والفلاحون الجفاة الغلاظ بكل خشونة الثورة وقسوتها •

ذهبت الى فندق استوريا الذى كان مقررا أن ننزل فيه •• وهو فندق فاخر خيل الى أول الامر ان أثاثه جاء من مخلفات قصور ما قبل الثورة •• فالارض مفروشة بالسجاد الاحمر الثقيل والاركان مزدحمة بالتماثيل والتحف التى يخيل اليك انها وضعت لانه لا يوجد مكان آخر لتوضع فيه ، وعندما نظرت من نافذة حجرتى ، وجدتها تطل على ميدان واسع تملأ قلبه الخضرة ••

وفى وسطه كتدرائية ضخمة تعلوها قبة مذهبة .. هذه كتدرائية ايساكى .. كما يقول الدليل ، وهـذا هو ميدان ايسـاكى .. اذا فلعل هذا الفنـدق الذى انزل فيه هو الفنـدق الذى كان أول مبنى استولى عليه البحارة يوم الثورة فى اكتوبر ١٩١٧! والذى دارت حوله معركة عنيفة قبل أن يسـقط فى أيدى الثائرين .. وربما كانت هذه الحجرة بالذات احدى الحجرات التى صـوب الثائرون منها بنادقهم أو التى اعتصم فيها النبلاء الخائفون !.

وهذه البارجة الصغيرة الراسية بالقرب من الفندق .. انهـا البارجة «أورورا» .. كانت واقفة فى هذا المكان بالضبط ليـلة الثورة فى أكتوبر وعندما هبت العاصفة حولت مدافعها الى « قصر الشتاء » الذى يسكن فيه القيصر . وأطلقت عليه أول قنبلة .. اعلنت مولد الثورة .. ثم قامت بنفس الدورة مرة أخرى عندما قرر البلاشفة اسقاط حكومة كيرنسكى والاستيلاء على السلطة.. وكانت حكومة كيرنسكى قد اتخذت مقرها فى قصر الشتاء منذ تركه القيصر .. ان البارجة اورورا باقية الآن مجرد رمز تذكارى، وعلى المدفع الذى أعلن بداية الثورة توجد لوحة نحاسية تسجل هذا التاريخ ..

وهذه هى محطة السكة الحديد التى تسمى «المحطة الفنلندية» لانها نهاية الخط الحديدى القادم من فنلندا ، لقد وصل لينين الى هذه المحطة آتيا من المنفى .. وخرج الى الجماهير التى احتشدت فى انتظاره ليهتف بحيـاة الثورة ، وليعلن شـعاراتها : الارض للفلاحين، والخبز للناس ، والسلام للجنود، وفى نفس المكان الذى وقف فيه لينين وألقى هذا الخطاب .. يقوم اليوم تمثال له ، يمثله

وهو يهتف ..

أما هذه الحدائق الواسعة التى تملأ « ميدان مارس » والتى تروى العاملات زهورها فى هدوء .. فقد ارتوت ذات يوم من الدم . وكان ذلك قبل ثورة اكتوبر بكثير .. كان ذلك فى سنة ١٨٢٠ عندما تآمر (الديسمبريون) على اغتيال القيصر خلال احدى الاستعراضات العسكرية التى كانت تجرى فى هذا الميدان وفى اللحظة الاخيرة وشى أحد الضباط المتآمرين بزملائه ، وشهد هذا الميدان مذبحة من مذابح التاريخ الكبرى ...

وسألت السيدة التى كانت تطوف بنا معالم المدينة : أين قصر سمولنى ؟..

لقد كان قصر سمولنى هو قلب العاصفة ومقر الثورة الحقيقى .. كان هو المكان الذى اجتمع فيه مندوبو العمال والفلاحين والجيش ، واحتدمت فيه أعنف المناقشات . وتقرر فيه اسقاط حكومة كيرنسكى واستيلاء البروليتاريا على الحكم ..

وذهبنا الى قصر سمولنى.. المكان الآن هادىء جدا .. قصر أصفر كبير ، فى جنة من الحدائق .. كان فى الزمان القديم مبنى اقامته القيصرة لعشيقها ، ثم أصبح معهدا للبنات الأرستقراطيات وفى الثورة استولى عليه الثائرون ليكون مقرا لمجالس السوفيت.

لقد كان هذا القصر الهادىء يضطرم فى تلك الايام بالصراع. كان كالبوتقة الضخمة الموضوعة فوق نار هائلة .. كل ما فيها يغلى ، وينفجر ويرسل الدخان .. كان زعماء الثورة وممثلو السوفيتات يتناقشون بلا انقطاع ، واذا أدركهم التعب رقدوا على الارض فى الردهات ريثما تغفو عيونهم قليلا .. ثم يستيقظون ،

وكانت القضية التي نوقشت في هذا القصر خطيرة : فريق يرى ان الثورة يجب أن تكون ديمقراطية فقط، وان دور ثورة البروليتاريا لم يأت بعد ، ويستشهدون على ذلك بكلام ماركس وانجلز ، ولينين على رأس الفريق الآخر يرفض الاخذ بكلام ماركس وانجلز كما هو ، ويؤكد أن الوقت مناسب لكي تستولى البروليتاريا مباشرة على حكم . وبضربة واحدة تفرض دكتاتورية الطبقة العاملة ...

وكان لينين هو أقوى الاشخاص .. ورأيه أقطع الآراء ، وكان تروتسكي هو أفصح المتكلمين .. لقد تكلم مرة في يوم واحد اثنتى عشرة ساعة .. وعندما انسحب انصار الفريق الاول ليلة الثورة من القصر صاح تروتسكي : دعوهم .. فسوف يكنسهم التاريخ في ترابه ...

ولكن تروتسكي أيضا .. كنسه التاريخ في ترابه بعد انتصار الثورة بسنوات ..

وانتخب الحاضرون في تلك الليلة (البريزيديوم) الجديد وفاز تروتسكي وكامينيف ولونا تشارسكي ونوجين .. ومدام كولونتاى .. كانوا كلهم من البلاشفة ، انصار لينين ، وتقرر ان يكون الاضراب والهجوم على قصر الشتاء في اليوم التالى لاسقاط حكومة كيرنسكي والاستيلاء على الحكم ...

وخرجت المنشورات تحمل عناوين : السلطة كلها لسوفيتات العمال والجنود والفلاحين .. السلام والخبز والارض .. وكانت المنشورات تحمل توقيع زينوفيف ، زميل لينين في المنفى ..

وصوبت المدمرة (اورورا) مدافعها الى قصر الشتاء ، وزحفت

عليه الجماهير ..

فأين قصر الشتاء ؟..

انه هذا البناء الاخضر الهائل الذى يمتد على ضفة نهر النيفا، ويشرف من الخلف على ميدان واسع جدا ، يقع فى طرفه الآخر مبنى القيادة العامة القيصرية للقوات الروسية ..

واقتحمت الجماهير قصر الشتاء وسار الجنود الثائرون فى الردهات الباهرة ، وخدم القصر فى ثيابهم الزرقاء المذهبة كأنهم فى تمثيلية عجيبة ، واقفون يفركون عيونهم دهشة ، واقتحم أحد الجنود الحجرة التى كان يجتمع فيها وزراء كيرنسكى .. قاعة هائلة قد طلى كل شىء فيها بالذهب..السقف والجدران والابواب وجذب الجندى أحد الوزراء من كمه وقال له : لا اجتماعات بعد الآن .. اذهب الى بيت أمك ولا تعود ...

وانفجر باقى الجنود بالضحك .. واستسلمت حكومة كيرنسكى ، وأصبح لينين حاكم روسيا ...

وما زال قصر الشتاء باقيا على حاله بكل فخامته وروعته واسرافه ...

لقد أراد القياصرة أن يقلدوا به فرساى فأحضروا خيرة المهندسين الفرنسيين ، والايطاليين ، واحضروا أعظم رسامى العصر لكى يشترك الجميع فى اقامة هذا القصر الاسطورى ...

ان القاعة التى أقيمت فيها مقبرة الكسندر نيفسكى ــ الذى صد هجمات جنكيز خان ــ فيها طن ونصف من الفضة الخالصة!!.

والردهات والسلالم كلها من أندر أنواع الرخام الملون ...

وهناك أيضا « قاعة عربية » ، لا تمت الى الفن العربى ولا

الزوح الغربية بصلة .. فقد خلط الذين رسموها بين العرب والزنوج ...

وعندما هزم نابليون وتبدد جيشه على ثلوج روسيا كما يذوب الشبح .. خلد القياصرة ذكرى النصر بدهليز عجيب فى القصر استغرق بناؤه وزخرفته سبعة أعوام ، وسجل فيها بالرسم كل الذين ساهموا فى هذه الحرب ..

أما قاعة العرش الكبرى المصنوعة من الرخام الايطالى الابيض .. فقد رسم سقفها بالذهب الخالص ورسمت أرضها بستة عشر نوع من الخشب الثمين نفس الرسم الموجود بالسقف ، بحيث يبدو وكأنه انعكاس له ، كما تنعكس الصورة على الماء ...

وقد تحول قصر الشتاء الآن الى متحف كبير .. أكبر متحف فى الاتحاد السوفيتى كله ، واسمه « متحف الايرميتاج » ...

والمتحف يعرض اثارا ولوحات وادوات من جميع عصور البشر ، وكل بلد لها قسم كبير .. فالقسم الايطالى مثلا يتكون من ٣٢ قاعة كبيرة فيها كل شىء من آثار ايطاليا وتاريخها وفنها .. فيه مثلا ١٢ لوحة من لوحات ليوناردو دافنشى الكبرى الاربعة عشر ، وفيها دهليز كامل منقول من الفاتيكان من رسم رفايللو ...

والقسم الفرنسى يشغل مكانا أضخم من القسم الايطالى ، وهو حافل بتحف عجيبة من لوحات فرنسا وتماثيلها . وآثار ملوكها .. وكل شىء فى القسم فرنسى .. من اللوحات الى الثريات الى المقاعد والفازات ...

ولمصر فى هذا المتحف خمس قاعات وجدت فى احداها اثنين من الفراعنة راقدين فى التابوت ، وقد جف لحمها فى هذا المكان

البارد الغريب ...

هذا عن قصر الشتاء .. فقد كان للقياصرة فى المدينة قصر آخر للصيف ...

انه يقع فى ضواحى المدينة على شاطىء البحر ، والحدائق التى تحيط بالقصر الشامخ تبلغ مساحتها أكثر من مائتى فدان ...

وأعجب ما فى هذه الحدائق مجموعة النافورات العجيبة التى تراها هناك بالعشرات ، والتى لا تشبه واحدة منها الاخرى ...

وفى صدر القصر مجموعة من النافورات تصور تماثيلها معركة بين الانسان وبعض أنواع الحيوان ، وكل جرح فى جسد الانسان أو الحيوان ينبجس منه بدل الدم نافورة من الماء تتجمع كلها فى مجرى ضخم يتدرج الى البحر ..

وقد كان القيصر اسكندر مغرما بمداعبة ضيوفه واصدقائه.. فملأ الحدائق بالحيل والخدع .. هذا مقعد بسيط .. اذا جلست عليه انفجرت من تحتك نافورة مياه تغرق ثيابك . وهذا كشك خشبى تجلس تحته وفجأة تهبط عليك المياه كالمطر الغزير.. وهناك ممر عادى . اذا داست قدمك على مكان معين منه حاصرتك المياه المنطلقة من جوف الارض ...

وقد تحولت هذه المنطقة كلها الى منطقة حدائق . فيها بحيرات لصيد البط ، وملاعب لكل نوع من الالعاب ، وفيها «ستاد» ضخم يطل على ساحل البحر ...

وقد سميت هذه المنطقة باسم : «كيروف» ، وكان أحد رفاق ستالين ورئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى لينتجراد ، وفى سنة ١٩٣٤ اغتال بعض أنصار تروتسكى كيروف ، وقيل فى ذلك

الوقت أن الرصاصة التى قتلت كيروف انما كانت مصوبة الى حكم ستالين ، وأعقب هذا الاغتيال محاكمات كبيرة حكم فيها بالاعدام على كل زعماء المعارضة تقريبا بتهمة الخيانة العظمى وفى مقدمتهم: زينوفيف وكامينيف ، وبوخارين ...

لقد كنسهم التاريخ فى ترابه !..

*

ولا أترك الحديث عن لينينجراد دون أن اذكر شيئا لمس منى شغاف القلب .. شىء اسمه : قصر الثقافة ...

ان الملاحظة العامة فى الاتحاد السوفيتى كله، ان ثمة عناية هائلة يبذلونها للاطفال، للنشىء الجديد. فالطفل هناك هو أول من يتمتع بخيرات المجتمع ...

ومن اعجب مظاهر هذه العناية ، قصور الثقافة المنتشرة فى كل مكان ، واكبرها قصر الثقافة فى لينينجراد ، الذى يحمل اسم زدانوف ...

وزدانوف كان الرجل الثانى بعد ستالين ، هو الذى قاد الدفاع خلال حصار لينينجراد الطويل ...

وقصر الثقافة مؤسسة غريبة . هو ناد يشترك فيه كل الاطفال بين سن الرابعة عشرة تقريبا .. ورسالتها ان يمارس كل طفل فيها هواية أيا كانت .. وبذلك تتفتق مواهبه وتزكو ملكاته ، ويعرف وهو فى هذه السن المبكرة ، الى اين يتجه بالضبط ...

يستطيع الطفل فى قصر الثقافة ان يحب الموسيقى فيتعلمها ، أو يمارس الرسم ، أو هندسة السيارات ، أو لعب الشطرنج ، أو الجيولوجيا ، أو بناء السفن ، أو رقص الباليه ، أو أى وجه يمكن

تصوره من وجوه النشاط الإنسانى ...

وقد مس قلبى ان أدخل قاعة كبيرة فيها سيارة حقيقية مفككة، والاطفال فى سن السابعة يعبثون فيها، انهم يعبثون فيها ويفكونها .. ثم يبدأ المدرس بطريقة عملية ، فى شكل جمعية لا دراسة ، يشرح لهم اليوم مثلا بوق السيارة فقط ، وغدا يشرح لهم شيئا آخر ، وهكذا ... وفى سنة واحدة من اللعب والتسلية يصبح لدى الطفل فكرة واسعة عن السيارة وطريقة صنعها .

وفى قاعة اخرى ، نرى الاطفال ذوى الخيال ، الذين يغرمون بالاستماع الى القصص والحكايات .. ولهم مدرس ، أو صديق كبير ، يروى لهم الحكايات فى حلقات . فاذا كان يروى لهم رواية مسلسله عربية مثلا ، تجد الجدران كلها مرسومة لكى تعطى الاطفال جو الصحراء العربية ، ويجلس الاطفال على الارض كأنهم جالسون فى الصحراء ، ويدخل لهم الراوى وقد ارتدى ثياب البدو العرب .. وهكذا !!..

وفى قاعة ثالثة بنات فى سن السابعة والثامنة يرقصن الباليه .. وهكذا ...

هذا التوجيه الغريب البكر يعطى الطفولة خصوبة فذة . لا يجعلها مجرد فترة ضائعة بين عصا المدرس وبين العبث الذى ليس له مضمون .. فالطفل بهذا الاسلوب ينضج قبل الاوان ، أو أن طفولته فترة هامة فى حياته لا تقل فى أهميتها عن فترة الشباب أو الرجولة ...

العودة ...

اشرقت الشمس لاول مرة فى لينينجراد منذ وصولنا اليها ...

وقد بقي على موعد الطائرة التى نترك عليها الاتحاد السوفيتى ساعات قليلة .. قضيتها اتمشى على ضفاف النيفا ، واحدق فى مياه البلطيق الكالحة ، واتفرج على الاطفال يلعبون فى حديقة ميدان ايساكي التى تواجه الفندق .. منتهزين فرصة بزوغ الشمس ..

وذهبنا الى المطار قبل الموعد بقليل ...

وكان معنا المرافقون الذين عشنا معهم شهرا كاملا ، لا نفترق لحظة ليل أو نهار ...

كان هناك عبدالرحمن سلطانوف ، واناتول تشيكوف، وكان هناك شكير دولت خان سبحان كولوف . . هذا الرجل العجيب الذى لم يهدأ لحظة واحدة طوال الرحلة.. الرجل الغامض الذي يتكلم بحساب ، ويبتسم بحساب ، ونشعر بأن له أهمية خاصة لا نستطيع ان نحققها ...

لقد كان هو المسئول عن الرحلة كلها.. من المواعيد الى اصناف الطعام الى المواصلات الى الزيارات ، كان مسئولا عن ساعاتنا

الاربعة والعشرين كل يوم ...

وفى احدى المرات اكتشفت انه يعانى آلام مرض عنيف فى معدته ، وانه يأخذ حقنا لتسكين الالم ، دون ان نعرف ، ودون ان يبدو عليه أى تعب أو مرض أو شكوى ...

انه مازال على صلابته ، لا يحركه شيء ، ولا يبدو على وجهه أى تعبير ...

وطفت مع اناتول تشيكوف الحقول بالمطار وفجأة توقف وقال لى :

ـ لقد رقدت هنا ثلاث سنوات !..

لقد كان تشيكوف احد جنود الجيش الروسى الذى دافع عن لينينجراد اثناء الحصار ، وفى هذه الحقول القريبة من لينينجراد ، حفر الخنادق وعاش ثلاث سنوات ...

ـ اننى واحد من كثيرين ، ولعل دورى كان بسيطا ، اننا لا ننس ما قاسيناه من أهوال ، وليس عجيبا بعد ذلك ان نكره الحرب ... الى هذا الحد ...

ودارت محركات الطائرة ، لتعلن نهاية الرحلة ...

وبدأنا نصعد الى الطائرة ...

ولكن شيئا غريبا قد حدث ...

ان شكير دولت خان سبحان كولوف .. يبكى ! ويلوح لنا بمنديله !

فهرس

	صفحة
الاهــــــداء	٣
السفــــــر	٥
ايفان الرهيب	١١
عبر الستار الحــديدى	١٦
كييف	٢٢
الكولخـــــور	٣٢
مع وزير الثقافة	٤٢
القطـــــــار	٤٦
كنـــوز موسكو	٥٢
الشارع فى موسكو	٦٦
من الذى يحكم روسيا	٧٩
الفن والصحافة والادب	١٠٢
الى طشقند	١٢٢
مصيف ستالين	١٣١
ستالينجراد	١٣٤
المراة والزواج والحب	١٣٧
لينينجـــــراد	١٤٧
العودة	١٥٨

توزيع
الدار المصرية للكتب
٢٤ شارع عبد الخالق ثروت
القاهرة

طبع بمطابع جريدة الصباح بالقاهرة


دار النديم

